Lundi-11-11-1935


3me Année, No. 123.

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع المبتديان رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٢٣ « القاهرة في يوم الاثنين ١٤ شعبان سنة ١٣٥٤ — ١١ نوفمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

في الجمـــال ...

— ٢ —

لعل جمال المرأة أبرع مثل للجمال الطبيعي لو تدبرته ؛ وسر الاعجاب فيه هو سر الاعجاب في جمال الرجل : أعني الذكاء ؛ والذكاء كما قلت من قبل إبداع الوسائل اللائمة للغاية ، ثم تطبيق هذه الوسائل على غايتها في نظام دقيق محكم ؛ فأنت لا تستطيع أن تفقه جمال المرأة إلا إذا وقفت على حكمة الله فيها ، وغرض الطبيعة منها ، وأدركت ما بين طبيعة خلقها وعلة وجودها من المواءمة التي تسترق الأفئدة وتدق على أفهام البشر

فالعلة الغائية لخلق المرأة هي أن تكون زوجة وأما ، وسبيلها أن تروق الرجل وتدمث خُلقه وترقق طبعه ليسكن إليها ويُشبل عليها بالمونة والنجدة ؛ وسكون الزوج إلى زوجه تدبير إلهي يقوم عليه بناء المجتمع وبقاء النوع ، لأن المرأة وهي زوج تحمل ، أو أم ترضع ، لا تملك لنفسها ولأولادها غذاء ولا حماية ؛ فما دام الولد في حاجة إلى أمه ، فالأم في حاجة إلى أبيه . ولكن غريزة الاستقرار والاستمرار في الرجل ضعيفة ، فلا بد لهذا الوحشي

الشريد من صلة أخرى غير صلة الدم تحبسه على زوجه وتعطفه على بنيه؛ والحب وحده هو الذى مكن الطبيعة من هذه البُغية؛ فبفعل الجاذبية سكن النافر، وبسحر الجمال ثبت النَّزوف. وللحب خصيصتان قويتان: الرغبة والحشمة؛ ومن ذلك كان جمال المرأة داعيَ الرغبة خافض الجناح حيي الطبع؛ والرجل مزهوٌّ على المرأة يُدل بحيازته لها، ويتعزز بقيامه عليها؛ فهو يريدها «ريحانة لا قهرمانة»، وحبيبة لا جلية[1]، لها سلطان ولكنه رفيق، وفيها إباء ولكنه رقيق

ومن ذلك كان جمالها مزيجاً من الوداعة والعزة، وخليطاً من الضعف والدلال، وطباقاً من الهيبة والنبل

......

وجمال المرأة يحتفظ بدوامه وسحره ما دامت له روح من العاطفة تشع فى نظراتها، وتنسم فى بسماتها، وتشيع فى قسماتها، وتنشر أنواءها السحرية على أعصاب الرجل - وهو بطبعه ولوع - فيتمتع بنعمة اختياره ولذة إيثاره، ويجد فى الضعف الذى يستسلم ويستكين، الحبَّ الذى يطول ويحكم

......

إن شبهة الخداع والتصنع تمحق كل شيء: لذلك كان فى مخايل الطيبة والنزاهة، وفى سمات الظرف الغرير يتراءى وهو يختفى، وفى أسرار الهوى المكتوم تفضحه البسمة الحنون من شفة مطبقة، وتمله الومضة الخاطفة من نظرة حيية، وفى دلائل الملامح المعبرة فى الوجوه والعيون تقول وهى تنصت، وتريد وهى ترفض: كان فى كل أولئك بلاغة الجمال؛ فاذا أصيب الحب بالفتور ابتُلى الجمال بالخرَس

......

وسلطان المرأة القوى على قلب الرجل إنما يأتيها من ذلك الذكاء المستترّ ترعاه معه وفيه على غير علمه؛ فكان من مزايا جمالها أيضاً أن تلوح هذه البصيرة الدقيقة على أسرَّة وجهها، وتشرق على الأخص فى تلك النظرة الوديعة التى تتغلغل فى طوايا القلب فتنسخ ظلال الفتور، وتبدد ظلام الكآبة، وتشعل خمود الحب . . . . .

......

ومن خصائص جمال المرأة الاحتفاظ بالقلب الذى تصبّاه وسباه؛ ووسيلته أن يطرد السأم عنه، ويجدد الشوق فيه، فيعير المادة المملة ألوان الجدّة، ويقبس الحياة الرتيبة حرارة التنوع؛ وذلك هو السر العجيب الذى وضعه الله فى الجمال النسوى، فيتكرر ولا يُمل، ويستعلن ولا يُفهم، ويتجدد ولا يتناهى، ويتنوع ولا يختلف، ويتولد ولا يبيد!!

* * *

إن فى خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس؛ وإن فى تجميع النهر، وتكوين الجبل، وتصريف الريح، وإثارة البحر - لجلالاً رائعاً يجرى فى كل شعور، ويستولى على كل قلب، لأنه يعلن القوة الخارقة؛ والقوة أروع خصائص الجمال وأشدها أخذاً بمدارك الحس؛ كذلك تجد فى صغار الأشياء مفاتن للجمال الطبيعى تهز النفس وتصبى الشاعر؛ فورقة الزهرة، وجناح الفراشة، يبعثان فى قلبك من الاعجاب ما يبعثه الطود المتوج بالثلج، والمحيط الملفف بالعاصفة؛ ولكن خصيصة الجمال فى الزهرة والفراشة هى فرَة الألوان، ونصاعة الأصباغ، وتمدد الصور؛ وخصيصة الفرة أضعف من خصيصة القوة لتأثرها بالذوق، وخمودها بالألف والعادة

ولعل خصيصة الذكاء أخفى الخصائص الجمالية جميعاً، لأن مرجعها إلى التأمل والفهم، وهذان لا يتيسران فى كل وقت، ولا لكل شخص؛ فالبركان والأعصار يروعان القلب بالقوة المجردة، ولكن الجمال إذا قام على خصيصة الذكاء وحده، وهى الترتيب والمواءمة والانتظام، خبا أثره فى الناس إلا إذا كان محسوساً شديد الغرابة! أليس الواقع أن براعة القدرة وسر الابداع سواء فى المظلة والأسد، وفى القصبة والدوحة؟ ولكنك تعجب بالأسد والدوحة، ولا تكاد تأبه للمظلة والقصبة، لأن سلطان القوة غالب، وسحر العظمة عجيب

فاجتماع الخصائص الثلاث إذن ضرورى لحصول الجمال الصحيح فى مشاهد الطبيعة وروائع الوجود

(للبحث بقية)

احمد حسن الزيات

[1] القهرمانة: الخادم، والجلية: الجارية المجلوة

اللون الأصفر

للأستاذ احمد أمين

لفت نظرى — وأنا أدرس الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى — ما رأيت من كثرة ما كتب عن اللون الأصفر فى هذا العصر، وحلوله محلاً كبيراً غطى على كل الألوان الأخرى، وكثرة ما قيل فيه من أدب، فرأيت أن أعرض على قراء «الرسالة» شيئاً منه وأترك لعلماء الجمال ما يدل عليه انتشار اللون الأصفر فى الشعوب من تحديد درجة الذوق فى الرقى، وعلاقته بانتشار التهتك والخلاعة، ودلالته على مقدار ما وصلت إليه الأمة من حضارة

***

رأيت العراقيين هاموا باللون الأصفر وتغزلوا بالوجوه الصفر، وصبغوا ثيابهم بالصفرة، وافتتنوا بالزهور الصفر، وأكثروا من اتخاذ الطعوم الصفر، ومدحوا الجواهر الصفر، وهكذا

روى الجاحظ من الأمثلة المشهورة قولهم: «أهلك النساءَ الأصفران: الذهب والزعفران»، وهذا يدل على غرام النساء باللون الأصفر، وظهور هذا الغرام بحبهن للذهب والزعفران؛ أما حبهن للذهب فللونه ولأنه خير أنواع المال. وقد ظُلم النساء برميهن وحدهن بحب الذهب، فمن من الرجال كذلك لم يذله الذهب ويسترقه المال ويستعبده الدينار؟ ومن منهم لم يقس اخلاقية العمل بمقياس الذهب؟ . . . لقد كان الحريرى أصدق قولاً إذ يقول:

أكْرِمْ به أصفرَ راقت صفرتهُ ... جوّابَ آفاقٍ ترامت سفرتُه

مأثورةٌ سمعتُه وشهرته ... قد أودعت سر الغنى أسرّته

وقارنت نجحَ المساعى خطرتُه ... وحُببت إلى الأنام غرّته

. . . .

لولا التّقى لقلت جلت قدرته

وأما الزعفران (وهو نبت له أصل كالبصل وزهر أصفر الى حمرة) فقد كان له سلطان فى بغداد أى سلطان حتى لو سميَتْ بغداد فى ذلك العصر مدينة الزعفران لم تُبعد؛ وقد جعلوا له قوة سحرية فقالوا: «إنه إذا كان فى بيت لا يدخله سام أبرص)

وإذا حسن فى عينهم شيء أصفر شبهوه بلون الزعفران كما قال آدم بن عبد العزيز:

شربت على تذكر عيش كسرى ... شراباً لونه كالزعفران

وأكثروا من تلوين الطعام به؛ قال بديع الزمان فى إحدى مقاماته: «ومعنا على الطعام رجل تسافر يده على الخوان، وتأخذ وجوه الزعفران»

وكان البغداديون يلونون الطعام ويكرهون أن يقدموه بلا تلوين، ويسمون الطعوم غير الملونة «الطعوم المُعتدَّة» تشبيهاً لها بالمرأة فى العدة، لأنهم يكرهون منها أن تلبس الثياب الملونة، فكانوا يلونون الطعام بالزعفران وبالعصفر وهو أصفر أيضاً. قال ابن حمدون:

هاتوا أطايب نورٍ فائق سمناً ... كالفيل قدّاً وإن عدُّوه فى البقر

وسكْبجُوها ووفوها توابلها ... وزعفروُها وصفوها عن النير

وصبغوا بالزعفران ملابسهم؛ حكى الأغانى أن الرشيد دخل على أخته علية بنت المهدى فى يوم قائظ فوجدها قد صبغت ثياباً بزعفران وصندل وجعلتها على الحبال لتجف، فجعلت الرياح تمر على الثياب فتحمل منها ريحاً بليلة عطرة فوجد لذلك راحة من الحر

وكتبت جارية على قباء معصفر:

وما البدر المنير إذا تجلى ... هدوا حين يتزل بالعراق

بأحسن من بثينة يوم قامت ... تهادَى فى معصفرة رقاق

وقد كثرت أسماء الثياب الصفر فسموا

التّخمَّةَ: الثياب المخططة بالصفرة

والرّادعة: القميص لُمع بالزعفران والطيب

والسبنيّة: نسبة إلى سَبَن قرية بنواحى بغداد وهى ثياب من حرير فيها أمثال الأترجّ (الأصفر)

والثياب المحرّضة: وهى المصبوغة بالاحْرِيض وهو العصفر.

والثوب المُمصّر: قيل هو المصبوغ بصفرة خفيفة

والثوب المورّس: المصبوغ بالورْس وهو نبت أصفر يصبغ به.

وأكثر ما كانت العصائب التى تتزين بها النساء عصائب مصبوغة بالزعفران وشيت بخيوط من حرير وطرزت بسلوك من ذهب

وقالوا أجمل شيء غلالة معصفرة على جارية

ويروى الوشاء فى كتابه الموشى أنه لا يحسن بالرجال لبس المصبوغ بالزعفران فى مظاهر الجد لأن ذلك من لبس النساء والقيان؛ وقد يلبسه الرجال فى أوقات الفصد والملاجات وأوقات الشراب، وربما استعملوا ذلك فى وقت قصفهم وتظرفوا بها فى مجالسهم ... والظهور بها قبيح من السوقة مستحسن من أهل النعم وأبناء الخلفاء »

وحكى التنوخى فى نشوار المحاضرة « أن الخليفة المتوكل اشتهى أن يجعل كل ماتقع عليه عينه فى يوم من أيام شربه أصفر، فنصبت له قبة صندل مذهبة مجللة بديباج أصفر، مفروشة بديباج أصفر، وجمل بين يديه الدستنبو(١) والأترج الأصفر وشراب أصفر فى صوانى ذهب، ولم يحضر من جواريه إلا الصفر، عليهم ثياب قصب صفر، وكانت القبة منصوبة على بركة مرصمة يجرى فيها الماء، فأمر أن يجعل فى مجارى الماء إليها الزعفران على قدر ليصفر الماء، ويجرى من البركة أصفر، ففعل ذلك وطال شربه فنفد ماكان عندهم من الزعفران، فاستعملوا العصفر، ولم يقدروا أنه ينفد قبل سكره فنفد، فلما لم يبق إلا قليل عرّفوه وخافوا أن يغضب إن انقطع ... فلما أخبروه أنكر أنهم لم يشتروا أمرا عظيما، وقال إن انقطع هـذا تنغص يومى، فخذوا الثياب المصفرة بالقصب فانقعوها فى مجرى الماء ليصبغ لونه بما فيها من الصبغ ... فحسب ما لزم ذلك من الزعفران والعصفر ومن الثياب التى هلكت فكان خمسين ألف دينار »(٢)

ونسبوا إلى أفلاطون أنه قال إن رائحة الزعفران تسكن الغضب، وإذا قرن اللون الأحمر بالأصفر تحركت القوة العشقية

ولأعجابهم باللباس المعصفر أو المزعفر شبهوا به الخمر، فقال ابن وكيع:

فاشرب مُعَصْفَرَةَ القميص سُلاَفَةً
من صنعة البَرَدَان أو قُطْرُبُّل

وقال ابن المعتز:

لبسَتْ صفرةً فكم فَتَنَتْ من أعينٍ قد رأينها وعقول
مثل شمس الغروب تسحب ذيلا صبغته بزعفران الأصيل

وقال ابن الرومى فى وصف شواء:

وسميطة صفراء دينارية ثمناولونا زَفَّها لك حُجْؤُذر

وأكثروا من مدح المرأة الصفراء واستحسنوها، ففى الأغانى أن متَيَّم الهاشمية، ومحبوبة المتوكلية، ودنانير البرمكية، كن صفراوات مولدات، وسميت دنانير بذلك لصفرتها. وقال بعضهم فى وصف جمال الصفرة:

وعهدى بها صفراء رود كأنها نضى عرق منها على اللون مجسدا

ومدحوا الزهور الصفر والثمار الصفر

فمدحوا الآذَرْيُون وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود، قال فيه ابن المعتز:

كأن آذَرْيُونَها والشمسُ فيه كاليه
مداهنٌ من ذهب فيـــه بقايا غاليـه

كما مدحوا « الخيرىّ » وهو المنثور الأصفر.

وكان عندهم نوع من الياسمين أصفر قال فيه الشاعر:

كأنما الياسمين حين بدا يشرق من جوانب الكثب
عساكر الروم نازلَتْ بلدا وكل صُلْبَانها من الذهب

ومدحوا التفاح الأصفر والخوخ الأصفر:

وتنزلوا بصفرة الخمر فقال أبو نواس:

صفراءُ لاتنزل الأحزانُ ساحتَها لو مسها حجرٌ مسته سراء

ويقول آدم بن عبد العزيز:

اسقنى واسق خليلى فى مدى الليل الطويل
لونها أصفر صاف وهى كالسك القتيل

وبالغوا فى حب الصفرة حتى كانت القينة أحيانا تلبس الثياب المصفرة أو المزعفرة وتطلى ماظهر من يديها ومن عنقها بالورس روى بعضهم قال: « رأيت جارية ببغداد وقد طلت يديها بالورس وفى عنقها طبل وهى تنشد:

محاسنها سهام للمنايا مُرَيَّشَةٌ بأنواع الخطوب »

وكثيرا ماقرنوا هـذا اللون بالدلالة على الميل إلى الشهوات والفجور، فقد رأينا ولوع القيان بهذا اللون؛ ورمزوا للخليع بقولهم إنه « يلبس المُوَرَّس » واعتقدوا أن الورس يزيد الميل إلى النساء؛ وقرر ذلك الفيروزابادى فى القاموس وهو الولع دائما بالنص على ذلك

هـذه ظاهرة غريبة رأيتها وهى ظاهرة تستحق الدرس، وأحق الناس بالفتوى فيها علماء الجمال الاجتماعى؟

أحمد أمين

(١) هكذا بالأصل ولعله الدستبويه وهو بطيخ أصفر صغير مستطيل
(٢) نشوار المحاضرة ١ / ١٤٧

المُشْــــكلة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قالت لى صاحبةُ « الجمال البائس » فيما قالت : إن المرأةَ الجميلةَ تخاطب فى الرجــل الواحد ثلاثة : الرجلَ وشيطانه وحيوانه ؛ فأما الشيطان فهو معنا وإن لم نــكن معه . . . وأما الحيوانُ فله فى أيدينا مقادةٌ من الغباوة ، ومقادةٌ من الغريزة ، إذا شمَسَ فى واحدة أصحب فى الأخرى وانقاد ؛ ولــكن المشكلة هى الرجل تــكون فيه رجولة

* * *

نعم إن المشكلة التى أعضلتْ على الفساد هى فى الرجل القوى الرجولة يعرف حقيقةَ وجوده وشرفَ منزلته ، ولهذا أوجب الاسلامُ على المسلم أن يكونَ بين الوقت والوقت فى اليوم الواحد خارجاً من صلاة

وإنما الرجولةُ فى خلالٍ ثلاث : عمل الرجل على أن يكون فى موضعه من الواجبات كلِّها قبل أن يكون فى هواه ؛ وقبوله ذلك الوضعَ بقبول العامل الواثق من أجره العظيم ؛ والثالثةُ قدرتُه على العمل والقبول إلى النهاية

ولن تقومَ هذه الخلالُ إلا بثلاثٍ أخرى : الادراكِ الصحيح للغاية من هذه الحياة ؛ وجعل ما يحبه الانسانُ وما يكرهه موافقاً لما أدرك من هذه الغاية ؛ والثالثةُ القدرةُ على استخراج معانى السرور من معانى الألم فيما أحبّ وكره على السواء

فالرجولةُ على ذلك هى إفراغُ النفس فى أسلوب قوىّ جزْل من الحياة ، مُتساوقٍ فى نمط الاجتماع ، بليغ بمعانى الدين ، مصقول بجمال الانسانية ، مُسترسـلٍ ببلاغة وقوة وجمال إلى غايته السامية

ولهذه الحكمة أسقطت الأديانُ من فضائلها مبــدأ إرضاء النفس فى هواها ، فلا معاملة به مع الله إلا فى إثم أو شر ؛ وأسقطه الناسُ من قواعد معاملتهم بعضهم مع بعض ؛ فلا يقوم به إلا الغش والمكرُ والخديعة ، وكلُّ خارج على شريعة أو فضيلة أو منفعة اجتماعيــة ، فانما ينزع إلى ذلك إرضاء لنفسه وإيثاراً لها وموافقةً لحبها وتوفيةً لحظها ؛ وعمله هذا هو الذى يُلبسه الوصفَ الاجتماعىّ الساقط ويسميه باسمه فى اللغة ، كالرجل الذى يرضى نفسه أن يسرق ليغتنى ، فاذا أعطى نفسه لرضاها فهو اللص ؛ وكالتاجر فى إرضاء طمعه هو الغاش ، وكالجنــدى فى إرضاء جبنه هو الخائن ، وكالشاب فى إرضاء رذيلته هو الفاسق ، وهلمّ جراً وهلمّ جرجرة . . .

* * *

وأما بعد ، فالقصة فى هذه الفلسفة قصةُ رجل فاضل مهذب قد بلغ من العلم والشباب والمال ، ثم امتحنته الحياة بمشكلة ذهب فيها نومُ ليله وهدوءُ نهاره حتى كسفت باله وفرّقت رأيه وكابد فيها الموتَ الذى ليس بالموت وعاش بالحياة التى ليست بالحياة

قال : فقدتُ أمى وأنا غلام أحوجَ ما يكون القلبُ إلى الأم ، فخشى علىّ أبى أن أستكين لذلة فقدها فيكون فى نشأتى الذلُّ والضراعة ، وكبر عليه أن أحسّ فقدَها إحساسَ الطفل تموت أمه فيحمل فى ضَياعها مثلَ حزنها لو ضاع هو منها . فعلمنى هذا الأبُ الشفيق أن الرجل إذا فقد أمه كان شأنه غير شأن الصبى لأن له قوة وكبرياء ، وألقى فى روعى أنى رجلٌ مثله ، وأن أمه قد ماتت عنه صغيراً فكان رجلاً مثلى الآن . . .

وكان من بعدها إذا دعانى قال : أيها الرجل ، وإذا أعطانى شيئاً قال : خذ يا رجل ، وإذا سألنى من شأنى قال كيف الرجل ؛ وقلّ يومٌ مرّ إلا أسمعنيها مراراً حتى توهمتُ أنّ منى رجلاً فى عقلى خلقته هذه الكلمة : وتمامُ الرجــل بشيئين : اللحيةُ فى وجهه ، والزوجة فى داره ، فتجيء الزوجةُ بعد أن تظهر اللحية لتكون كلتاهما قوةً له ، أو وقاراً أو جمالاً ، أو تــكون كلتاهما خشونة ، أو لتكونا معاً سوادين فى الوجه والحياة . . .

أما اللحيةُ لى أنا أيها الرجلَ الصغيرَ فليس فى يد أبى ولا فى حيلته أن يجيء بها ، ولــكن الأخرى فى يده وحيلته ؛ فجاءنى ذاتَ نهار وقال لى : أيها الرجل ! إن فلانة مُتسماةٌ عليك(1)

(١) هــذا هو التعبير العربى الصحيح لقولهم قبل العقد « مخطوبة لفلان »

منذ اليوم فهى امرأتك فاذهب لترى فيك رجلها . وفلانة هذه طفلة من ذوات القُربى ، فأفرحني ذلك وأبهجني ؛ وقلت للرجل الذى فى عقلى : أصبحتَ زوجاً أيها الرجل . . .

وكان هذا الرجلُ الجاثمُ فى عقلى هو غرورى يومئذ وكبريائى ، فكنت أقع فى الخطأ بعد الخطأ وآتى الحماقةَ بعد الحماقة ، وكنت طفلاً ولكن غرورى ذو لحية طويلة . . .

* * *

ونشأتُ على ذلك صلبَ الرأى معتدًّا بنفسى إذا هممتُ مضيت ، وإذا مضيتَ لا ألوى ؛ وما هو إلا أن يخطر لى الخاطر فأركبَ رأسى فيه ، ولأنْ تُكسرَ لى يدٌ أو رجل أهونُ على من أن يكسرَ لى رأى أو حكم ؛ وأكسبنى ذلك خيالاً أكذبَ خيال وأبدَه ، يخلط علىَّ الدنيا خلطاً فيدعنى كالذى ينظر فى الساعة وهى اثنا عشر رقماً لنصف اليوم الواحد ، فيطالعُها اثنى عشرَ شهرا للسنة . . .

وترامت حريتى بهذا الخيال فجاوزت حدودُها المعقولة . وبهذه الحرية الحمقاء وذلك الخيال الفاسد ، كذبتْ على الفكرة والطبيعة

ولست جميلَ الطلعة إذا طالعتُ وجهى ، ولكنى مع ذلك معتقد أن الخطأ فى المرآة . . . إذ هى لا تظهر الرجل الوضيءَ الجميل الذى فى عقلى ؛ ولست نابغةً ولكن الرجل الذى فى عقلى رجل عبقرى ؛ وهذا الذى فى عقلى رجل متزوج فيجب علىَّ أنا الطفلَ — أن أكون رزيناً رزيناً كوالد عشرة أولاد فى المدارس العليا . . .

وذهبتُ بكل ذلك أرى زوجتى ، فأغلقت البابَ فى وجهى واختبأت منى ، فقلت فى نفسى : أيها الرجل ان هــذا نشوزٌ وعصيانٌ لا طاعةٌ وحب . وساءنى ذلك وغمّنى وكبر علىَّ فأضمرتُ لها الغَدْر ، فثبتت بذلك فى ذهنى صورةُ (الباب المغلق) وكأنه طلاق بيننا لا باب . . .

* * *

قال : ثم شبَّ الرجلُ فكان بطبيعة ما فى نفسه كالزوج الذى يترقّبُ زوجته الغائبةَ غيبةً طويلة ؛ كلُّ أيامه ظمأ على ظمأ ، وكل يوم يمرّ به هو زيادةُ سنة فى عمر شيطانه ... وكان قد انتهى إلى مدرسته العالية وأصبح رجلَ كتب وعلوم وفكر وخيال . فمرضتْ له فتاة كاللواتى يمرضن للطلبة فى المدارس العليا ، ما منهن على صاحبها إلا كالخيبة فى امتحان ... بيد أن (الرجل) لم يعرف من هــذه الفتاة إلا أوائل المرأة ... ولم يكد يستشرفُ لأواخرها حتى سمّيت على غيره فخطبت فزفّت ، زُفّت بعد نصف زوج إلى زوج ...

وعرف الرجل من الفلسفة التى درسها أنه يجب أن يكون حراً بأكثر مما يستطيع وبأكثر من هــذا الأكثر ... فقالها بملء فيه ، وقال للحرية : أنا لك وأنت لى

قالها للحرية ، فما أسرعَ ما ردت عليه الحرية بفتاة أخرى ...

* * *

نقول نحن : وكان قد مضى على (الباب المغلق) تسع سنوات فصار منهن بين الشاب وبين زوجته العقلية تسعة أبواب مغلقة . ولكنهما مع ذلك مسماةٌ له يقول أهله وأهلُها (فلان وفلانة) . وليس (الباب المغلق) عندهم إلا الحياءَ والصيانة ؛ وليست الفتاةُ من ورائه إلا العفافَ المنتظر ؛ وليس الفتى إلا ابنَ الأب الذى حمّى الفتاةَ له وحبّسها على اسمه ؛ وليست القُربى إلا شريعةَ واجبةَ الحق نافذةَ الحكم

وعند أهل الشرف ، أنه مهما يبلغْ من حرية المرء فى هذا العصر فالشرفُ مقيَّد

وعند أهل الدين ، أن الزواج لا ينبغى أن يكون كزواج هذا العصر قائماً من أوله على معانى الفاحشة

وعند أهل الفضيلة ، أن الزوجة إنما هى لبناء الأسرة ؛ فان بلغ وجهُها الغايةَ من الحسن أو لم يبلغ ، فهو على كل حال وجهٌ ذو سُلطة وحقوق (رسمية) فى الاحترام ؛ لا تقوم الأسرة إلا بذلك ولا تقوم إلا على ذلك

وعند أهل الكمال والضمير ، أن الزوجة الطاهرةَ الخالصةَ الحبِّ لزوجها ، إنما هى معاملةٌ بين زوجها وبين ربه ؛ فحيثما وضعها من نفسه فى كرامة أو مَهانة ، وضع نفسَه عند الله فى مثل هذا الموضع

وعند أهل العقل والرأى ، أن كل زوجة فاضلة هى جميلةٌ جمالَ الحق ، فان لم تُوجب الحبّ وجبت لها المودّة والرحمة

وعند أهل المروءة والكرم ، أن زوجة الرجل إنما هى انسانيتُه ومروءتُه ؛ فان احتملها أعلن أنه رجل كريم ، وإن نبذها أعلن أنه رجل ليس فيه كرامة

أما عند الشيطان لعنه الله ، فشروط الزوجة الكاملة ما تشترطه الغريزة : الحب ، الحب ، الحب

***

قال الشاب : وإذا أنا لم أتزوج امرأة تكون كما أشتهى جمالاً وكما يشتهى فكرى غلماً ، كنت أنا المتزوج وحدى وبقى فكرى عزَبا . . . وقد عرفتُ التى تصلح لى بجمالها وفكرها معاً ، وتبوّأتُ فى قلبى وأقمتُ فى قلبها . ثم داخلْتُ أهلَها فخالطونى بأنفسهم وقالوا شابٌ وعزَب ... ومتعلم وسرىٌ ... فلم يكن لدارهم (بابٌ مغلق) حتى لو شئت أن أصل إلى كرائمهم فى حرامٍ وصلت ، ولكنى رجل يحمل أمانة الرجولة . . .

أما الفتاة فلست أدرى والله أنها جاذبية نجم أم جاذبية امرأة ؛ وهل هى أنثى فى جمالها أو هى الجمالُ السماوىُّ أتى يتقمص الفنونَ الأرضيةَ لأهل الفن ؟

إذا التقينا قالت لى بعينيها : هأنذى قد أرخيتُ لك الزمام فهل تستطيع فراراً منى ؟ ونلتصق فتقول لى بجسمها : أليست الدنيا كلها هنا ، فهل فى المكان مكانٌ إلا هنا ؟ ونفترق فتحصر لى الزمن كله فى كلمة حين تقول : غدا نلتقى

كلامها كلامٌ متأدب ، ولكنه فى الوقت نفسه طريقة من الخلاعة تلفتك الى فمها الحلو . والحركة على جسمها حركةٌ مستحييةٌ ، ولكنها فى الوقت عينه كالتعبير الفني المتجسّم فى التمثال العارى

إنها والله قد جعلت شيطانى هو عقلى ؛ أما هذا العقل الذى يتصح ويعظ ويقول هذا خير وهذا شر ، فهو الشيطان الذى يجب أن أتبرأ منه . .

***

قال : وألمّ الأبُ بقصة فتاه ، وبحسبها نزوةً من الشباب يُخمدها الزواج ، فيقول فى نفسه : إن للرجل نظرتين إلى النساء : نظرة إليهن من حيث يختلفن فتكون كل امرأة غيرَ الأخرى فى الخيال والوهم والمزاج الشعرى ؛ ونظرة إليهن من حيث يتساوَيْنَ فى حقيقة الأنوثة وطبيعة الاحترام الانسانى ، فتكون كل امرأة كالأخرى ولا يتفاوتن إلا بالفضيلة والنفعة .

ويقرّر لنفسه أن ابنه رجل متعلم ذو دين وبَصَر ، فلا ينظر النظرةَ الخياليةَ التى لاتقنع بامرأة واحدة بل لاتزال تلتمس محاسنَ الجنس ومَفَاتنَه ، وهى النظرة التى لايقوم بها إلا ابناءُ الشعر دون بناء الأسرة ، ولا تصلُحُ عليها المرأةُ تلد أولادا لزوجها ، بل المرأة تلد المعانى لشاعرها .

ثم احتاط فى رأيه فقدّر أن ابنه ربما كان عاشقاً مفتوناً مسحورا ذا بصيرة مدخولة وقلبٍ هواء وعقل مُلتاث ، فيتمرد على أبيه ويخرج عن طاعته ويحارب أهله وربّه من أجل امرأة ، بَيْدَ أنه قال إنه هو والده وهو ربّاه وأنشأه فى بيت فيه الدينُ والخلُق والشهامةُ والنّجدة ، وأن محاربة الله بامرأة لاتكون إلا عملا من أعمال البيئة الفاسدة المستهتِرَة حين تجمع كل معانى الفساد والاباحة والاستهتار فى كلمة (الحرية). وقال إن البيئة فى العهد الذى كان من أخلاقه الشرفُ والدينُ والمروءة والغيرةُ على العرض ، لم يكن فيها شىء من هذا ، ولم يكن الأبناءُ يومئذ يعترضون آباءهم فيمن اختاروهن ، إذ النسلُ هو امتدادُ تاريخ الأب والابن معاً ، والأبُ أعرفُ بدنياه وأجدرُ أن يكون مُبَرّأً من اختلاط النظرة ، فيختار للدين والحسَب والكمال لا للشهوة والحب وفنون الخلاعة ؛ ولاعل للاعتراض بالعشق فى باب من أبواب الأخلاق ، بل محلُّه فى باب الشهوات وحدها .

ثم تجزّمَ الأبُ أن الولد الذى يجىء من عاشقين حَرِىٌّ أن يرثَ فى أعصابه جنونَ اثنين وأمراضَهما النفسية وشهواتهما الملتهبة ، ولهذا وقف الشرع فى سبيل الحب قبل الزواج لوقاية الأمة فى أولها ، ولهذا يكثر الضعفُ العصبي فى هذه المدنية الأوربية ، وينتشر بها الفساد فلا يأتى جيلٌ إلا وهو أشد ميلا إلى الفساد من الجيل الذى أعقبه

ولم يكد ينتهي الأبُ إلى حيث انتهى الرأيُ به حتى أسرع إلى (الباب المغلق) يهيء الزفاف ويتعجّل لابنه المطبخ .... نكبةً ستجيء في احتفال عظيم ....

***

قال الشاب : وجن جنوني ؛ وقد كان أبي من احترامي بالموضع الذي لا يلق منه ، فلجأتُ إلى عمي أستدفعُ به النكبة وأتأيّدُ بمكانه عند أبي ، وبثثته حزني وأفضيت اليه بشأني ، وقلت له فيما قلت : افعلوا كل شيء إلا شيئاً ينتهي بي إلى تلك الفتاة ، أو ينتهي بها إليّ . وما أنكر أنها من ذوات القُربى ، وأن في احتمالي إياها واجباً ورجولة ، وفي ستري لها ثواباً ومروءة ، وخاصةً في هذا الزمن الكاسد الذي بلغت فيه العذارى سنّ الجدّات ... ولكن القلب العاشق كافر بالواجب والرجولة ، والثواب والمروءة ، وبالأم والأب ، فهو علك النعمة ويريد أن علك التنعم بها ؛ وكل من اعترضه دونها كان كاللص ....

قال : قَبّح الله حباً يجعل أباك في قلبك لصاً أو كاللص

قلت : ولكني حر أختار من أشاء لنفسي .. ...

قال : إن كنت حراً كما تزعم فهل تستطيع أن تختار غير التي أحببتها ؟ ألا تكون حراً إلا فينا نحن وفي هدم أسرتنا ؟

قلت : ولكني متعلم ، فلا أريد الزواج إلا عن ....

فقطع علي وقال : ليتك لم تتعلم ، فلو كنت نجاراً أو حداداً أو حوذياً لأدركت بطبيعة الحياة أن الذين يتخضّعون للحب وللمرأة هذا الخضوع ، هم الفارغون الذين يستطيع الشيطانُ أن يقضي في قلوبهم كلّ أوقات فراغه ....

أما العاملون في الدنيا ، والمناصرون في الحياة ، والعارفون بحقائق الأمور ، والطامحون في الكمال الانساني ، فهؤلاء جميعاً في شغل شاغل عن تربية أوهامهم ، وعن البكاء للمرأة ، والبكاء على المرأة : ونظرتهم إلى هذه المرأة أعلى وأوسع ؛ وغرضهم منها أجل وأسمى . وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله في النساء ، أي انظروا اليهن من جانب تقوى الله فان المرأة تُقدم من رجلها على قلب فيه الحبُّ والكراهةُ وما بينهما ولا تدري أي ذلك هو حظها ، ولو أن كل من أحب امرأة نبذ زوجةً لخربت الدنيا ولفسد الرجال ، والنساء جميعا . وهذه يابني أوهام وقتها وعمل أسبابها ، وسيمضي الوقت وتتغير الأسباب ، وربما كان الناضج اليوم هو المتعفّن غدا ، وربما كان الفجُّ هو الناضج بعد !

وهبك لاتحب ذاتَ رَحِمك ثم أكرمتها وأحسنتَ إليها وسترتَها ، أفيكون عندك أجلُ من شعورها أنك ذو الفضل عليها ؟ وهل أكرمُ الكرم عند النفس إلا أن يكون لها هذا الشعور في نفس أخرى ؟ إن هذا يا بنيّ إن لم يكن حبا فيه الشهوة فهو حب إنساني فيه المجد .

***

ووقعت (الشكلة) وزفّت السكينة ؛ فكيف يصنع الرجل بين المحبوبة والمكروهة ؟

(طنطا)

(رجاء إلى القراء) هذه القصة واقعة وقد بنى الرجل بامرأته وهو في الشهر الذي لا اسم له عنده وان كان اسمه عند الناس شهر العسل . فاذا يرى له القارىء من الرأي ؟ وماذا ترى القارئة لهذه العروس اللابسة أكفانها في عين الرجل ؟

وسننتظر أسبوعين ثم نكتب تتمة القصة ، ونرجو أن يكون هذا الفاضل عند ظن الخير به ؛ وسنبلغه ما نتلقاه من الآراء ؟ الرافعي

المأساة الفاشستية

بقلم باحث دبلوماسى كبير

فى الثامن والعشرين من اكتوبر احتفلت إيطاليا باختتام العام الثالث عشر لظفر الفاشستية الايطاليـة وقيام النظام الفاشستى ؛ فنذ ثلاثة عشر عاماً زحف موسولينى وأنصاره من ذوى الأقمصة السود على رومة ، وانتزعوا مقاليد الحكم ؛ ومنذ ثلاثة عشر عاماً يسيطر موسولينى وحزبه على مصاير إيطاليا ومصاير الشعب الايطالى ؛ ولكن الفاشستية الايطالية تحتفل بعيدها لأول مرة فى ظروف خاصة ؛ فهى الآن فى مأزق خطر ، بل هى تجوز معركة الحياة والموت ؛ وهى تشعر لأول مرة بمرارة الخيبة وانهيار الآمال ، وترى مشاريعها الاستعمارية العريضة فى ميزان القدر تكبدها من الخسائر والمشاق الفادحة ما لم تكن تحلم بتكبده ولا قبل لها باحتماله ، وترى فوق ذلك نفسها تواجه كتلة عاليـة من الأمم الناقمة الساخرة تحيطها بسياج من الحفيظة والبغض ، وتنظم ضدها مقاومة مادية فعالة وتزمع أن تقضى على كل مطامعها وأحلامها

والفاشستية هى التى جنت على نفسها وعلى إيطاليا ، وهى التى زجتها إلى ذلك المأزق الذى تتخبط فيه ولا ترى سبيلاً إلى الخلاص منـه ؛ فهى التى أقدمت عامدة مصرة على غزو الحبشة وانتهاك المعاهدات الدولية ؛ وهى التى لم تخجل أن تصرح فى جرأة منقطعة النظير أنها تغزو الحبشة وتعتدى على استقلالها لأنها فى حاجة إلى التوسع والاستعمار واستغلال الثروات الطبيعية التى تبطنها وهاد الحبشة ؛ وهى التى أثارت بعدوانها وغرورها وحمقها السياسـية اشمئزاز كل الشعوب المتمدنة ؛ وهى الآن فى محنتها ويأسها تحاول أن تتشح بثوب الظافر ، لأن الجيوش الايطالية استولت على بعض الأراضى الحبشية فى الشمال وفى الجنوب ؛ ولكن العالم يعرف جيداً أن هذا النصر اليسير لم يكن نتيجة معارك حقيقيـة ولا بطولة عسكرية ، وأنه مع ذلك قد كبد إيطاليا أعظم الجهود والخسائر ، وأن المعارك الفاصلة مازالت تنتظر إيطاليا فى الوهاد الحبشية السحيقة التى لن تبلغها إلا بأفدح تضحية من المال والرجال

لقد كان قيام الفاشستية فى إيطاليا أول ضربة حقيقية للديموقراطية والحريات الشعبية بعد الحرب الكبرى ؛ وكانت الديموقراطية قد استطاعت غداة النصر أن تكتسح النظم الأمبراطورية فى ألمانيا والنمسا ؛ ولكن الديموقراطية انساقت فى فورة الظفر إلى ألوان خطرة من التطرف والفوضى ؛ وكانت إيطاليا مسرحاً لهذا التطرف ، ففى غمر الاضطراب العام وثبت الفاشستية تؤيدها العسكرية ، وتؤيدها الصناعات الكبرى والمالية العليا ، وقبضت على زمام الحكم بقوة ؛ وظن خصومها فى المبدأ أنها فورة الساعة وأن ريحها لن تلبث أن تركد ، ولكن فورة الفاشستية كانت أشد وأقوى مما تصوروا ، وكانت المعركة قصيرة المدى ، فلم يمض سوى قليل حتى سحقت الفاشستية خصومها ، وسحقت الاشتراكية والديموقراطية ، وكل النظم البرلمانية الحقيقية ، وأخضعت الصحافة لصولها ، ولم تبق متنفساً للشعب الايطالى سوى طريقها ، ولم تسمح له بأن يفكر إلا برأيها أو أن يرى إلا بعينها ، وامتزجت الدولة بالحزب ، فغدت الفاشستية هى الحكومة وهى الدولة ، وهى مصدر السلطات وهى كل شىء فى حياة إيطاليا العامة ، وفى مرافقها ومصايرها

كان ظفر الفاشستية سريعاً ، وكان مطلقاً ، ولكنها لم تدخر لتحقيق هذا الظفر أية وسيلة مثيرة ؛ ولسنا نقف طويلاً بهذه الوسائل الهمجية التى أصبحت روح النظم الطاغية فى عصرنا ، سواء فى روسيا البلشفية أو تركيا الكمالية أو إيطاليا الفاشستية أو ألمانيا الهتلرية ، والتى تقوم على القتـــل والسجن والنفى والمصادرة وغيرها من أساليب العنف المنظم ؛ ولكنا نقول أيضاً فى إنصاف هذه الفاشستية الهمجية أنها لم تكن شراً مطلقاً ، بل كانت لها آثار داخلية حسنة ، وقد أسفرت جهودها فى سبيل الانشاء والتنظيم عن نتائج مادية ظاهرة الأثر فى تكوين إيطاليا الحديثة وفى تطورها وتقدمها ؛ فقد سحقت عوامل التفرق القديم الذى خسرت إيطاليا من جرائه مغانم الحرب فى معاهدة الصلح ، وسحقت عوامل الفوضى التى كادت تشل الحياة الاقتصادية فى إيطاليا ، وبثت فى الشعب الايطالى روحاً جديداً

وعزائم جديدة فى ميادين النشاط والتفكير والعمل ، فخطت الزراعة والصناعة والتجارة إلى الأمام خطوات واسعة ، ونظمت موارد الثروة القومية تنظيما مدهشاً ؛ وبذلت الفاشستية جهوداً محمودة لمعالجة الركود الاقتصادى والعطلة ، وحماية الانتاج القومى ، وقامت بمئات المشاريع العمرانية النافعة ، ولم تترك وجهاً من وجوه الحياة العامة إلا عملت لاصلاحه وتقويمه ؛ ولم تقف عند العمل فى ميادين النشاط المادى ، بل عملت أيضاً فى النواحى المنوية ، فطهرت الحياة الاجتماعية من كثير من أدرانها القديمة ، وبثت فى الشعب الايطالى روحاً جديداً من العزة والخلال الحسنة ، وقد كان قبل قيام الفاشستية فى حالة يرثى لها من الانحلال الفكرى والأخلاق ، ونظمت الشباب والنشء تنظيما بديعاً ؛ والخلاصة أنها من حيث الوجهة الداخلية ، خلقت ايطاليا خلقا جديداً ، وسارت بها فى سبيل التقدم شوطاً بعيداً . وأما من حيث الوجهة الخارجية فقد عملت الفاشستية أيضاً لتقوية ايطاليا فى البر والبحر والهواء ، ورفعتها من حيث القوة العسكرية والهيبة الدولية إلى مصاف الدول العظمى ذات الرأى المسموع

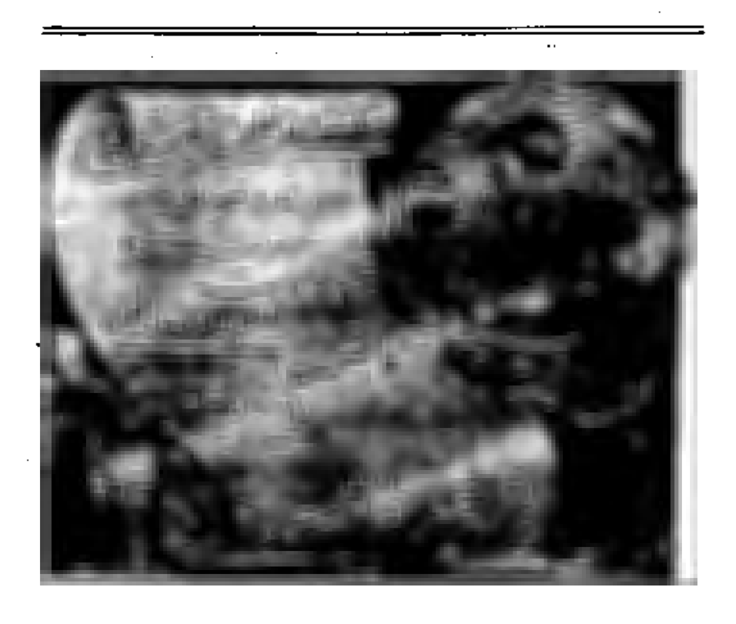
كل ذلك عملته الفاشستية فى أعوامها الثلاثة عشر ؛ ولكنها عملته فوق أكداس من الجرائم والضحايا ، وعلى انقاض الحريات العامة والكرامة البشرية والاستقلال الروحى والفكرى ؛ والفاشستية مادية مغرقة فى المادية ، والمعنويات فى نظرها وسيلة إلى تحقيق المصالح المادية ؛ ومن ثم جعلت من الجيل الايطالى الجديد ، فى تفكيره وعقليته وتصرفاته قطيعاً من البشر مسلوب الرأى والارادة ، توجهه الزعامة العنيفة أينما شاءت . وكان من أكبر وأخطر جرائم الفاشستية أنها بثت فى الشعب الايطالى روحاً خطرة هى روح الغرور المغرق ؛ ولا بأس من أن يتصف الشعب بالكبرياء القومية وأن يستمد من ماضيه المجيد وعظمته الحاضرة أسباب العزة القومية ، ولكن الفاشستية بثت فى الشعب الايطالى أخطر عوامل الكبرياء والتحدى الفارغة ؛ فالايطالى الجديد يعتبر نفسه اليوم أرقى الخليقة ، وأنه خلع بارتداء الفاشستية أثواب أوربا البالية ، وأنه غدا يشرف من ذروة عظمته الجديدة على بؤس القارة القديمة وتدهورها ، وأنه سيقود أوربا الجديدة طبق مبادئه وآرائه ؛ ثم هنالك ما هو أخطر من هذه الأوهام المنوية ؛ فقد بثت الفاشستية فى الجيل الجديد روح العداء لأوربا القديمة ، وروح التطلع والتحفز والعدوان ، ولقنته نظرية جديدة هى أن ايطاليا الفاشستية خليفة الدولة الرومانية القديمة وقرينتها ؛ وأن موسولينى إن هو إلا قيصر يقودها فى سبيل الفخار والمجد ، وغمرت هذه الروح القيصرية ذلك الشباب المغرور المتحدى ، فأصبح يتصور أنه سيعيد حدود الدولة الرومانية القديمة ، وأنه سيفتتح مصر والأناضول وسورية وشمال افريقية ، ويجعل من البحر الأبيض بحيرة رومانية ؛ ومضت ايطاليا الفاشستية تسخر بلسان زعيمها من كل دعوة للسلام ونزع السلاح ، وكل دعوة إلى تفاهم الأمم ، وآثرت نغمة الوعيد والتهديد ، والحرب والانتقام

غير أن ذلك الروح الحربى المضطرم لم يتمخض عن احياء الدولة الرومانية ، ولا استعادة شىء من حدودها أو أملاكها القديمة ، ولكنه تمخض عن مشروع استعمارى مثير وضيع معاً : ذلك هو غزو الحبشة وافتتاحها لاستخلاص ثرواتها الدفينة ، وليكون منها ومن الصومال والأرترية لايطاليا القيصرية امبراطورية استعمارية ضخمة ؛ وقد كان زعيم الفاشستية يحلم بأن جيوشه ستكتسح الفريسة فى سيل من النصر الباهر يدهش العالم ويروعه معاً . ولكن الفريسة صمدت للمعتدين عليها ، وأفهمتهم أن دون ازهاقها أهوالا وتضحيات فادحة ؛ وقد كانت الفاشستية فى ذلك معتدية أثيمة تنكر أبسط مبادئ الحق والعدالة ، بل تنكر ماضيها وعهودها وتصريحاتها التى أذاعتها لأول عهدها بلسان زعيمها . واليك مبادئ السياسة الخارجية الفاشستية كما أذاعها موسولينى فى أول برلمان فاشستى : « لا نريد استعمارا ، ولا نريد اعتداء ، ولكنا سنتخذ موقفاً يقضى على سياسة الاذلال التى جعلت ايطاليا أقرب إلى وصيفة وخادمة ذليلة للأمم الأخرى ؛ احترام للمعاهدات الدولية مهما كلفنا ذلك ؛ اخلاص وصداقة نحو الأمم التى تقدم لايطاليا أدلة صادقة على مبادلة هذه العواطف ؛ تأييد للتوازن الشرقى الذى يقوم عليه سلام الدول البلقانية ، ومن ثم يقوم عليه سلام أوربا وسلام العالم » ، ولكن الفاشستية وهى حركة عنيفة تقوم على القوة وتعتبر الحق للقوة ، لا يمكن أن ترتبط بعهد أو ذمام ، ولا يمكن

أن تؤمن بالحق لذاته أو العدالة لذاتها ؛ وقد نمت الفاشستية واشتد ساعدها بسرعة ، واستطاعت أن تخلق من ايطاليا قوة يخشى بأسها . بيد أنها بدلا من أن تقف هذه القوة لتأييد الهيبة والمصالح القومية المشروعة ، اتخذت منها أداة لتهديد سلام أوربا وسلام العالم ، وجعلتها وقفاً على تحقيق الشهوات الحربيــة والاستعمارية ، ولم تحجم عن أن تعرض سلام العالم للخطر في سبيل شهواتها وغاياتها

واليوم وقد انساقت الفاشستية إلى مغامرتها الخطرة ، فانها تشعر لأول مرة في تاريخها بصدمة حقيقية ؛ وقد كان موسوليني يظن أنه يستطيع افتراس الحبشة بأيسر أمر وعلى مرأى ومسمع من العالم ، وأن صيحات الوعيد المتكرر تكفي لاخماد كل معارضة وتدخل ؛ ولم يكن موسوليني ليقيم وزناً لعصبة الأمم ، وقد سحق مبادئها من قبل يوم احتل جزيرة كورفو ليرغم اليونان على تنفيذ مطالبه لخلاف نشأ بينهما من جراء مقتل بعض الرعايا الايطاليين في الأراضي اليونانية ؛ وكان موسوليني على حق في استخفافه بالعصبة وجهودها ؛ ولكن من كان يظن أن عصبة الأمم ستضطرم فجأة بروح جديدة ؟ ومن كان يعتقد أنها ستجرؤ على اتخاذ تلك القرارات التاريخية الشهيرة فتلقي تهمة الاعتداء العمد في وجه إيطاليا وتقضي عليها بالعقوبات الاقتصادية ؟ ولكن عاملاً جديداً لم يكن يتصوره موسوليني قط هو الذي وثب فجأة ووقف للفاشستية ولايطاليا بالمرصاد ، واستطاع أن يقلب جميع الأوضاع الدولية في أســـابيع قلائل : ذلك هو تدخل انكلترا وتحرك الامبراطورية البريطانية . ولقد كانت انكلترا تبغض الفاشستية منذ قيامها ، وتعتبرها خطراً على السلم الأوربي ؛ ولكنها منذ اشتد ساعد الفاشستية وذكا وعيدها وتدفقت جيوشها إلى شرق افريقية ، أدركت أن الفاشستية قد أصبحت بمطامعها ومشاريعها الاستعمارية خطراً داهماً على الامبراطورية البريطانية ، وعلى دولتها الاستعمارية في وادي النيل وشرق افريقية ، وعلى سيادتها في البحرين الأبيض والأحمر ؛ ويجب لتأمين سلام الامبراطورية وأمنها ، أن تسحق هذه الفورة الخطرة ؛ وهناك عامل معنوي آخر يقتضي في نظر انكلترا الحكم على الفاشستية ، هو أنها رمز النظم الطاغية المنيفة التي يمقتها الشــعب الانــكليزي ، ويراها خطراً على الديموقراطية التي غدت انكلترا ملاذها وحصنها الأخير بعد أن اجتاحت معظم الدول الأوربية ؛ وهكذا تستحيل المعركة اليوم إلى نضال خطير بين الفاشستية وبين الامبراطورية البريطانيــة مستترة وراء عصبة الأمم ؛ ولقد كان نجاح انكلترا عظيماً في حشد أمم العالم ضد إيطاليا باسم العصبة ، وفي تنظيم هذه العقوبات الاقتصادية التي ستشل عما قريب كل موارد إيطاليا وقواها المالية والاقتصادية ؛ وهكذا تنهار تدابير الفاشستية فجأة ، وترى نفسها وحيدة في الميدان ، تواجه سخط العالم وتألبه ، وتواجه الامبراطورية البريطانية ؛ وفي رأينا أنه ليس ثمة شك في نتيجة هذه المعركة ، فالفاشستية تجوز معركة الحياة والموت ، وهي تسير بلا ريب إلى انحلالها ، وليس في وسعها أن تثبت طويلاً أمام هذه الصعاب الفادحة التي تواجهها في الخارج وفي الداخل ؛ وتدل الطوالع على أن الحرب الحبشية التي أريد أن تكلل جبين الفاشستية بهالة من الظفر ستغدو قبراً للفاشستية ؛ ومن المرجح أن يقترن فشل الفاشستية في مشروعها الاستعماري بانهيار سلطانها في الداخل ، وعندئذ تختتم تلك المأساة الطويلة بانقلاب حاسم ، وتتحرر إيطاليا من تلك الأغلال الحديدية التي صفدتها مدى ثلاثة عشر عاماً ، ويتنفس العالم سعيداً إذ يرى مصرع تلك الفورة الطاغيــة الخطرة التي مازالت منذ قيامها تهــدد أمنه وسلامه

(***)



كيف كسبت الرهان!

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

(تنبيه — الحادثة ليست شخصية — وليس لى أخت)

غام الزجاج أمامى من كثرة ما سقط عليه من ندى الفجر، وكنت — كلما قطعنا بضعة فراسخ — أمسحه بمنديل ثم أجلوه بورقة، وكان ذلك يحوجني الى الوقوف ثم استئناف السير، وهذا مضيعة للوقت، والشقة بعيدة، والرهان جسيم؛ فقلت أرفع الزجاج، فان التعرض للهواء البارد أيسر محملا، وأهون من النظر من زجاج عليه ضبابة، وإن كانت رقيقة؛ وصحيح أن أختى كانت تصف لى الطريق وتسمى لى ما يعترضنا عليه، وتعين لى مواقع الأشياء، ولكن السائق لا يستطيع أن يعتمد على غير عينيه؛ ثم إن وصفها كثيراً ما كان يحيرني ويحدث لى اضطراباً، فقد كانت تقول مثلا: «هذا رجل فى وسط الطريق .. لا لا لا .. إنه أقرب إلى اليسار ... انتظر ... بل هو عشى عيناً ... امض على بركة الله ... لا خوف»

فأتنهد، وأمضى على بركة الله، فما ثم شىء آخر أمضى عليه؛ وبودى لو تبين لى كيف أستطيع أن أتريث وأنتظر حتى تتثبت هى وتقطع الشك باليقين! ثم إنى لم أكن أومن بأن نظرها أصح وأسلم وأقوى، وأنه يسعها ما أعيانى من اختراق هذا الضباب — أعنى النظر من خلال الزجاج المتغيم. لذلك توكلت على الله ورفعت الزجاج

وقال زوجها: «لا بأس! ولم لا؟ إنه لن يصيبنا شر من الالتهاب الرئوى»

فرمت اليه زوجته شيئاً وقالت: «تلفع بهذا»

فرده اليها وهو يقول: «الكلب لا يعض أذن أخيه ... صدق والله!»

فثاروا به وشغبوا عليه، ولما قرت الضجة قلت:

«غط صدرك إذا كنت تخشى الهواء، وفمك أيضاً — فانى نويت أن أعوض ما خسرت إلى الآن»

وضغطت بقدمى فانطلقت السيارة كالسهم، وانحنت أختى تنظر إلى العداد، وجعلت تعلن الىّ الرقم كلما تغير، وتصيح: «٤٠ .... ٤٣ .... ٤٧ .... ٥٠ .... أوه! لقد وصل إلى الستين ....! السبعين ....»

ثم أمسكت، فقد كان الهواء قوياً، ودفعُه فى الصدر شديداً، فلولا أن النظارة على عينى لما وسعني الصبر عليه؛ وكان الطريق مستقيما، والتراب راقداً لكثرة ما نزل عليه من الطل؛ وبدت لعينى مركبة فسألت نفسي: ترى على أى ناحية من الطريق هى؟ ولكنى جزتها ومرقت كالسهم فى نفس اللحظة التى رأيتها فيها، فلا جواب لسؤالى؛ وأحسست أن سيارة مقبلة علينا، ثم تبينت أنها ماضية فى اتجاهنا فما عتمت أن صارت وراءنا، وأحسب أن سائقها قد أوسعني شتما ولعنا، فما نبهته ولا حذرته؛ وظهرت ضيعة، ورأيت بيوتها الواطئة المبنية من الطين، وأخذت عينى الأشجار المغروسة أمامها — أو خلفها، لا أدرى — فقد غابت عن عينى بأسرع مما بدت لها؛ وكنت لا أجرؤ أن أصوب لحظى إلى عداد السرعة، ولكنى كنت أحس كل كيلو نقطعه ونضيفه إلى ما فرغنا منه؛ وزاد ضغط قدمى، فتجهمت أختى ونظرت ثم قالت:

«٨٩ ... ٩٠ ... ٩١ ... ٩٢ ...»

ثم رأتنى كالمسمر فى مكانى، وكأنما أدركها العطف على، أو قواها اصرارى على الفوز، فعادت تنظر وتبلغنى ما ترى.

«إلى اليمين شيء ... عربة ... خال ... عربة ... تتحرك ... دراجة إلى يسارك ... سيارة مقبلة ... خال ... لا ... رجل عشى ... خال ...»

فسألتها: «كم كيلو قطعنا؟ وكم الساعة الآن؟»

وكانت الساعة الرابعة صباحا، ولا يزال أمامنا مائة وعشرة كيلومترات إلى دمنهور، ونحو ثلاثين أخرى إلى القرية، وثلاث ساعات نقطعها فيها

فجعلت أدافع اليأس؛ ذلك أن الطريق إلى (بنها) واسع، ولكنه بعد ذلك يضيق، إلى قريب من طنطا، ويزدحم بالجمال والأبقار والأغنام والدواب والسيارات، فسألت القوم: «هل ورد ذكر لدمنهور فى الرهان؟»

فقالت أختى: «أظن ... لا لا ... لم يرد لها ذكر».

وقال زوجها : « أو ورد ... ... سيان ... ... »

فقاطعته ابنة عمه ، وكانت معه على المقعد الخلفي وقالت :

لا ، على التحقيق ... كل ما اشترطه هو الوصول إلى القرية الساعة السابعة صباحاً ، والأسبق هو الفائز ... ... ولكن لماذا تسأل ؟ »

قلت : لأن هناك طريقاً أخصر ... ... من طنطا إلى دسوق مباشرة »

قالت : « وما الفرق ؟ »

قلت : « ثلاثون كيلو ... مسافة لا يستهان بها ... والطريق أضيق ولكنه معبد »

قالت : « وهل تظن أنه يجهل هذا الطريق ؟ »

فهبط قلبي من صدري إلى حذائي ، ولي العذر ، فان قريبنا هذا – ومراهننا ، وصاحب الضيعة وداعينا إليها – أبرع مني وأعرف بالسكك المؤدية إلى قريته ، ولا شك أنه أهمل النص على دمنهور في الرهان عمداً ، لظنه أني لا أعرف غير سكة دمنهور ، ثم لا أشك أنه تلكأ وراءنا ليغافلنا في طنطا ، ويميل هو إلى الطريق الأخصر ... ...

وزاد الطين بلة أني أحسست ونحن ندخل بنها كأن قدمي قد شكت بمسمار محمي ، فصرخت ، ورفعت رجلي ، واضطررت أن أميل بالسيارة إلى الرصيف

وخلعت الحذاء وجعلت أنظر ، وأتحسس قدمي وأفركها ، فقالت أختي :

« ماذا جرى ؟ »

وقال أخوها : « هل أدلكها لك ؟ كلا ، لا بأس ! إذن لم يبق إلا العلاج بالايحاء . اسمع ! متى قلت : « واحد » فان عليك أن تفرغ رأسك من كل شيء – وهذا سهل جداً ولن يكلفك عناء – ومتى قلتُ : « اثنين » فاعتقد أن الألم الذي لا تحسه ، ليس إلا وهماً . . . ومتى . . . »

فصحنا به نسكته ، ولما انقطع اللغط قلت :

« طول الضغط فعل هذا ... على كل حال لا أظنني أستطيع أن أسوق السيارة ، فعليك أن تتفضل وتجلس في مكاني ، وأمرنا إلى الله ، وأرواحنا في وديعته ، وعوضنا الله خيراً ، فقد ذهب الرهان والأمل في كسبه »

فصاحت أختي : « ولكنه لا يحسن القيادة . . . »

قلت : « وما الحيلة ؟ سأجلس الى جانبه – وأرشده »

فقالت : بنت عمه : ولكنه سيقصر عمرنا . . . »

فقلت : « وماذا نصنع غير ذلك ؟ »

وقالت زوجته : « ولكني أخاف . . . أعني . . . إنه . . . »

فقلت : « اطمئني . . . لا خوف عليه . . . ولا علينا ، إذا كان هذا يعنيك »

فالتفت الينا وقال :

« ان الذي فهمته هو أن هناك اقتراحاً منكم بأن تتمتعوا بقيادتي لهذه السيارة . . . حسن جداً . . . فلتبلغ الصحف ، وليدع الشعراء »

فقلت : « إن المسألة لا تحتمل هذا المزح . . . »

وقالت أختي : لا تحتمله أبداً . . . عدني ألا تسرع . . . سر ببطء . . . على مهل . . . ولنصل بعد أسبوع . . . ماذا يهم ؟ واحذر أن تسابق شيئاً . . . »

فقال : « لا تخافي يانور عيني . . . إذا صادفت في طريق سيارة فاني أعدك أن أعطل المحرك ، وأذهب فأختبيء تحت شجرة »

ودخلت بينهما وقلت : « إن وعداً كهذا لا سبيل اليه ، فان علينا أن نصل إلى القرية في وقت معقول ، إذا لم يكن علينا أن نكسب الرهان ، ثم إني سأكون إلى جانبه وسأرشده ، وسيكون هو السائق اسماً ، فقط ، فلا خوف . »

فالتفت الينا ، بعد أن قعد في مكاني وقال : ولكني أشترط أن يكون الارشاد بلغة مفهومة ، أما أن تصيح بي « الهوا » أو « اكسر » . . . فلا يا صاحبي . . . قل كلاماً مفهوماً أطعك ! ولا تقلد ذلك الذي علمني ، وصاح فجأة : « حش . . . حش » فوثبت عن المقعد ، ولم أدر ماذا أحوش ، ووثب الرجل الذي دعاني معلمي أن أحوش السيارة عنه . . . وعلى ذكر ذلك أقول إني لم أر في حياتي أحداً يثب كما وثب ذاك الرجل يومئذ ! »

فصاحت زوجته ، وهي تنزل من السيارة : « إني لم أكن أعرف هذا الخبر ، ويستحيل أن أدعك تسوق السيارة »

وقعدت على الرصيف

وجعلت أنظر منها اليه ، ومنه إلى بنت عمه ، في صمت ! ومضت دقائق كأنها الدهر طولاً ، مشيت بعدها إلى مقعد القيادة وقلت :

« انزل من فضلك . . . فانك مطرود » فنزل وهو يقول :

« ولـكن رجلك . . . ثم إن هذا . . . »

قلت : « لا بأس ، سأجرب على الأقل »

فدنت منا بنت عمه ووضعت كفيها على كتفينا وقالت لي

« ألا تدعني أسوق ؟ . . . ربما . . . استطعت . . . »

قلت : « حباً وكرامة ، ولـكن كيف يمكن ؟ إنك . . . »

قالت : « لست جاهلة جداً ... وسأحتاج إلى إرشادك ... والطريق خال »

فقال : « نعم خال . . . جداً ، إلا من البقر والجمال . . . »

* * *

وركبنا جميعاً ، وقلت لها : « الآن ضعي ناقل السرعة في ... براڤو . . . انقليه برفق . . . براڤو جـداً . . . أظن أنه يحسن التأني حتى تبعد عنا هذه السيارة »

فقالت : وهي تحول ناقل السرعة إلى المكان الثالث : « كلا أظن أن الأوفق أن نمر به »

ومرقت كالسهم بجانبـه ، فالتفت اليها متعجباً ، فما كنا نعرف أن لها دراية بالسيارات أو خبرة بقيادتها ، ونظرت إلى العـداد فاذا هو يشير إلى الخمسين . . . فالستين ، فرفعت عيني اليها ، فألفيت على ثغرها ابتسامة فاتنـة ، وقالت وهي تخاطب بالسيارة :

« أظن أن الأمل في الرهان لم يذهب . . . على كل حال « عبده » لا يزال وراءنا »

فقالت أختي : « وراءنا ؟ من قال هذا ؟ لقد مرق وأنتم واقفون . . . رأيته بعيني »

فعدنا إلى اليأس بعد أن كاد ينتعش الأمل ، ولـكن الفتاة قالت :

« هذا أحسن . . . خيراً صنع . . . وأنا الآن مطمئنة »

قلت : « ولـكن كيف ؟ أليس قد سبقنا ؟ »

قالت : « سترى . . . معنا الله »

* * *

وشارفنا طنطا ، ولمحنا سيارة « عبده » ، فتباطأت ، وأبت أن تسبقه كما أشرت عليها ؛ فلما صرنا في قلب المدينة ، اغتنمت فرصة الزحام ، وتركته يمضي في طريق ، وضربت هي في طريق غيره ، وأطلقت للسيارة العنان

وقالت بعد أن خرجت إلى السكة الزراعية : « إنه يعتقد الآن أننا وراءه ، واعتقاده هذا ربح لنا ، وبقي أن يغلط ويأخذ طريق دمنهور »

فسألتها : « ولـكن من أدراك أنه لم يسبقنا ؟ »

قالت : « كلا ... إن طريقي أخصر جداً ... كن واثقاً »

ومضينا على سكة دسوق ، وكنا لا ننفك نلتفت وراءنا لعلنا نرى سيارة « عبده » ، فلما طال ذلك علينا أيقنا أنه أخذ طريق دمنهور ، فقد كان في وسعه أن يدركنا بسهولة

وسكة دسوق ضيقة كما أسلفت ، وكانت إلى هذا كثيرة الزحاليق ، وكانت السيارة لهذا تتلوى على المواضع المبللة ، كالحية ، ولـكن سائقتنا كانت حاذقة ، فسكن روعنا جميعاً ، ووسعنا أن نضحك ونمزح

وقلت لها — همساً — : « إني أحس غيرة . . . هنا »

وأشرت لها إلى موضع القلب فابتسمت وقالت : « لماذا ؟

قلت : « لأن على جبينك خصلة صغيرة جميلة يداعبها النسيم — أعني يقبلها — علناً وعلى مرأى منا جميعاً — وهذا . . . هذا . . . مخجل . . . فعسى ألا يعديني بالجرأة »

فتكلفت الجد وقالت : « إذا فعلت ، فسأمضي إلى هذه الترعة . . . مباشرة »

فهمست : « هش . . . لا تمزحي . . . إنها مسائل لا تحتمل المزح . . . ومن يدري ؟ ! فقد تصيبك العدوى . . . ثم إنك لن تحسني التعبيس ما دام لك هذا المحيا الواضح الذي يضيئه الجمال ، ويضحك فيه أيضاً »

فلوت مُوَجِّه السيارة بلا كلام فصاح ابن عمها :

« إلى أين بنا يا هذه ؟ »

قالت بابتسام : « الى الترعة . . . إذا لم يسكت »

قال : « إذا كنت تريدين أن تستحمي فان في البيت الذي نرجو أن نبلغه سالمين حماماً بديعاً ، ولـكن بغير ماء ! على كل حال ، أظن أن جارك مستعد أن يملأ لك الجرار ، ويصبها عليك أيضاً »

قالت : « إذا وعد بأن يكون حسن السلوك . . . »

واستأنفنا السير بسرعة ، وبطول بنا الحديث إذا أردت أن

أسرد ما عانيناه من الغنم والبقر والجمال والسيارات ؛ ولكن حادثاً واحداً وقع لنا لا أرى بداً من ذكره ، ذلك أنا وقعنا في وحل عظيم ، ولم يكن لنا مفر ، ولا كان لنا مهرب ، فقد كنا مقبلين بسرعة فإذا أمامنا — وإلى مسافة طويلة — ماء وطين ووحل شديد فارتطمنا فيه قبل أن ندرك ما حدث ، وصارت العجلات تنزلق دائرة ولا تتقدم . فأوقفت المحرك وقالت :

« هل مع أحد منكم سيجارة ؟ »

وأشعلتها ، ونفخت دخانها ثم قالت :

« هذا أوان الحاجة إلى الرجال . . . فاخرجا ، وابحثا عن قش تلقيانه تحت العجلات ، أو احفرا الطين أمامها وشقا لها طريقاً »

فقال ابن عمها : « هذا بديع . . . لقد تركت أظافري تطول لمثل هذا اليوم . . . قم بنا يا أخي »

ولكنا فعلنا غير ذلك ، ودعونا أحد الفلاحين إلى معونتنا ، فزعق فاجتمع حولنا نفر من الرجال والنساء ، أعملوا أيديهم في الطين حتى رفعوه من طريقنا ، فشكرنا لهم مروءتهم ومددنا لهم أيدينا بنقود ، فأبوها كل الاباء ؛ وقال الذي جمعهم : « عيب يا افندي » فألححنا ، فأصر على الاباء ، وعلى أن هذا عيب ، فكررنا له الشكر ، وصافحناه ثم نظرنا في أيدينا فإذا كلها طين ! فاستحيينا أن نقول شيئاً على مسمع منه

* * *

بلغنا البيت قبل صاحبه وقبل الموعد المضروب بنحو ربع ساعة ، وكان الفضل لهذه السائقة البارعة التي كنا نجهل أن هذه من مزاياها ؛ ولما أقبل مضيفنا بعد دقائق قال له نسيبي :

« ليكن هذا درساً لك . . . هات الرهان »

قال : « ولكن من أين جئتم ؟ » ثم كأنما تذكر فرفع يده إلى جبينه وصاح : « ما أغباني ! » فقال نسيبي : « تمام . . . اعرف نفسك . . . هكذا قال الحكماء . . . وهذا هو ربحك اليوم . . . وأولى أن تسأل كيف جئنا . . . حدثه يا هذا ، فإن بي كسلاً بعد الذي تجشمته من متاعب القيادة »

فضحنا به منكرين هذا الكذب . . .

ابراهيم عبد القادر المازني

حول السنيين والشيعة

للأستاذ محمد بهجة البيطار

قرأت ما كتبه العلامة الأستاذ أحمد أمين في الرسالة الغراء (عدد ١٢١) تحت عنوان (السنيون والشيعة) فرأيته يدعو إلى نبذ كلام الطاعنين من الفريقين ، وإلى عقد مؤتمر للوحدة الاسلامية ، يمهد له بالتماس وسائل الوفاق من الآن ؛ ولعمري أن السنة والشيعة هما أكبر مظهر للمسلمين اليوم ، وهم المرجوون لورائة تلك الوحدة الدينية ، وتجديد ذلك المجد الدارس علماً وديناً وأخلاقاً ؛ وإن أضر شيء علينا هو هذه العصبية الموروثة ، والعداوة الممقوتة ، والتفرق الديني الذميم ، « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء »

أيها الشيعة الكرام : تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أنتم تحبونها منا وهي تسرنا منكم ، وهي أن نأخذ بأدب سيدنا علي وهديه ، ونقف من محاربيه عند حدود أمره ونهيه ، وان لم تتجاوزوا قوله ولا فعله ، فأهل السنة معكم ، وأنتم منهم وهم منكم ، وهاهي ذي أقواله وأعماله تعرض عليكم : لقد بايع الامام علي للأئمة الثلاثة من قبله ، وتنازل ولده الحسن عن الخلافة لمعاوية من بعده ، وأصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين طبقاً لما أخبر جده الصادق الأمين عليه وآله الطاهرين وصحبه الطيبين أفضل الصلاة والتسليم :

في نهج البلاغة أن علياً عليه السلام سئل عن الخوارج : أكفار هم ؟ قال من الكفر فروا ؛ قيل : أفمنافقون ؟ قال : المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً ، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ؛ قيل فما هم ؟ قال قوم بغوا علينا فقاتلونا وقاتلناهم . وفي نهج البلاغة أيضاً أنه عليه السلام قال وقد سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين : « إني لأكره أن تكونوا سبابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم ، وذكرتم حالهم ، كان أصوب في القول ، وأبلغ في العذر »

أقول ومعلوم من حال أهل السنة أنهم يقصون ماجرى بين

الصحابة (رض) ويصفون أعمالهم، ويذكرون حالهم، ويرون أن الحق فى جانب علىّ عليه السلام، وأن محاربيه هم الفئة الباغية على الامام الحق، وهم المخطئون فى اجتهادهم، ولكنهم يؤولون التشاجر بينهم تأدباً واحتراماً لصحبتهم، وحفظاً لكرامتهم، وحسن بلائهم فى نشر الدعوة الاسلامية، ويقولون: الكل ينشدون مصلحة الاسلام

أيها الاخوان الكرام: أليست الدعوة إلى عقد مؤتمر يعيد الوحدة الاسلامية على هذا الأساس الدينى، السُّنى العلَوى هو المطلوب ولا سيما فى هذا الزمن العصيب؟

فنحن نعزز رأى الأستاذ الجليل أحمد أمين، ونرجو أن يعقد مؤتمر فى الكنانة أو فى دار السلام تزول به تلك الاحن، وتحول تلك المشاحنات الى ما يعود على الأمة بالنفع العام من توحيد الكلمة، وتقوية الملة، وانشاء دور العلم المشتركة، واحياء ذكرى أئمة آل البيت عليهم السلام بتجديد هديهم واصلاحهم

(دمشق) محمد بهجة البيطار

أثر تشجيع الأمراء

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

نالت الآداب العربية من تشجيع الأمراء فى مختلف العهود مالم تكد تظفر به آداب أمة أخرى؛ ومن الأقوال المتواترة فى كتب الأدب العربى وتاريخه أن ذلك التشجيع كان من أهم أسباب ازدهار الأدب، ولكن الحقيقة التى يراها المدقق أن ذلك التشجيع لم يكن له ذلك الأثر الطيب المعزوّ إليه، بل كان له فى الأدب العربى أثر وخيم بعيد المدى

ذلك بأن الأمراء حين شجعوا الشعر وقربوا الشعراء وأغدقوا عليهم لم يقصدوا إلى تشجيع الفن لذاته أو إكرام أصحابه، وإنما كانت لهم غاياتهم الشخصية ومآربهم السياسية المعروفة، فكانوا يريدون من أولئك الشعراء التزكية وإعلاء الصيت ومناضلة أعدائهم والذب عن دعواهم فى الملك والسيادة، ولذلك لم يطلبوا عندهم سوى فن واحد من فنون الشعر هو المدح، ولم نعلم عن أمير أجاز شاعراً لنبوغه فى الوصف أو النسيب أو قول الحكمة وضرب الأمثال

فالشعر الذى شجعه الأمراء هو المدح دون غيره، وليس المدح بخير فنون الشعر ولا هو من الشعر على الاطلاق لمن طلب فى الشعر تعبيراً عن شعور صادق قيم؛ وما كان المدح الذى أنشأه أولئك الأمراء فى الشعر العربى إنشاء لا نظير له يحوى شعوراً صحيحاً ولا تفكيراً مستقيماً

إن أول خصائص الشعر الجيد صدوره عن دافع وجدانى داخلى، وهذه صفة كانت تنقص شعر المدح الذى كان لا يصدر إلا عن دافع مادى خارجى هو صلة الممدوح، وإن لم يحس الشاعر بحب له ولا إعجاب به، حتى ولو أضمر له البغض والازدراء.

فلا غرو، وقد فقد شعر المديح هذه الصفة الأساسية أن خالطه الكذب وأسرع إليه التهويل والمبالغة والتهاتر والاسفاف والاحالة، وأغرى معالجيه بسد نقص الشعور بالتلاعب بالالفاظ واصطناع محسناته، وأولعهم بالسرقة من متقدميهم وتعاوُر معانيهم توليداً وتخريجاً وابتذالاً، حتى لم تَعُد غاية قرض الشعر التعبير عن الشعور الصحيح — لأنه لم يكن هناك فى الغالب شعور — بل عادت الغاية إبداء البراعة ومعارضة المتقدمين واستدرار أكبر الصلات

وشعر المديح استتبع ضرباً آخر من الشعر ليس أقل منه حطة فى المرتبة وبعداً عن أغراض الشعر الصحيح، وهو الهجاء: لأن إرضاء الممدوح كان يستتبع ذم خصومه، ولأن المادح الخيِّب كان ينقلب فى الغالب هاجياً مفحشاً لممدوحه أو للشاعر الذى زاحمه ونال الحظوة دونه، ولأن بعض الأمراء كان يشجع تراشُق الشعراء ببذىء القول شغلاً لأذهان الناس، وكان من ثمار هذه الخطة مقذعات جرير والفرزدق والأخطل

واستتبع شعرُ المديح ضرباً آخر من النظم بعيداً عن الشعر الصحيح والشعور المستقيم امتلأ أيضاً بأنواع الاغراب والاغراق

والاسفاف ، ذلك هو النسيب الاستهلالى الذى التزمه الشعراء المدّاحون من أهل الحضر تشبها بالمداحين من الجاهليين وإمعاناً فى تقليدهم

وكل هذه الرذائل التى تجمعتْ فى شعر المديح – لخلوه من الدافع الوجدانى والشعور الصادق – انتقلت إلى ضروب القول الأخرى ففشت فى الشعر كله عيوب التقليد والمبالغة والصناعة اللفظية ومحاولة إبداء البراعة

واسترقّتْ هباتُ الأمراء – للأسف الشديد – رِقابَ معظم أقطاب الشعر العربى ، فلم ينزّه شعرَهُ عن طلبها إلا القليل جدا ممن أبت لهم ذلك ظروف خاصة ، كالشريف الرضى وأبى العلاء ، وأضيعَ جانبٌ ضخم من عبقريات أبى نواس والطائى والبحترى وابن الرومى والمتنبى وغيرهم من الفحول فى نظم الأكاذيب والمفارقات طلباً لجوائز الأمراء ، فكان من أقوال هؤلاء الفحول :

تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبض لم تطعه أنامله

تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوذها بنغمة طالب

وقد زعموا أن النجوم خوالد ولو حاربته ناح فيها الثواكل

وكشفن عن بَرَدٍ خشيتُ أذيبه
من حر أنفاسى فكنتُ الذائبا

والمتأمل لهذه الأبيات يرى إلى أى حدّ من تفاهة المعانى وكذبها واستحالتها قد خرج المديح بالشعر وبفحول الشعر ؛ بيد أن النُّقّاد انساقوا فى ذلك التيار ، فعدّوا هذا السفساف من غرر أولئك الشعراء وراحوا يقابلون بين هذه الأقوال ويفاضلون بين قائليها ، والأديب الذى يريد من الشعر التعبير الصادق عن الشعور الصحيح لايرى لأحد من قائليها فضلا بل يحذفها من عداد الشعر جملة

ولو أعرض أولئك الشعراء عن تلك السبيل وقَصَروا القول على بيان شعورهم الصحيح وأفكارهم الصادقة وتوفروا على الفن الذى حبتهم به الطبيعة جاعليه غاية لنفسه ، إذن لربح الشعر العربى ربحاً جزيلا ولَوَسّعُوا من أغراضه وأوضاعه ورحّبوا من أطرافه وآفاقه

هذا أثر تشجيع الأمراء للشعر وصِلَتِهم للشعراء : إدخالٌ لفارغ القول وكاذبه وسفسافه ، وإزاغة للنظرة إلى الغرض منه ، وتقييد لأغراضه ومذاهبه ، وقعود بِهمَم رجاله عن استيفاء غاياته ، وصرفٌ لهم عن جِدّ التفكير ونافعه ؛ ولو أراد الأمراء بالشعر خيراً لكفّوا عن رجاله صِلاتِهم فطلب الشعراء الرزق من أبوابه التى يطلبه الناس منها ، ونَحّوْا الشعر عن المادة ، وأبقوه كما يجب أن يبقى ترجماناً لمشاعر النفس ووصفاً لروائع الكون لجاء الأدب العربى أشد انطباعاً بطابع الصدق مما كان

لم يكن للأدب الانجليزى – لحسن حظه – مثل هذا الاتصال الوثيق ببلاط الأمراء ، ولم يتخذ حلية من حلى القصور وآلة من آلات السياسة إلا فترة وجيزة فى أواخر القرن السابع عشر خالطه فيها الضعف والاستهتار والمجون والملاحاة ، ثم كانت للأدباء بالنبلاء فى بعض القرن الثامن عشر صلة ، ولكن شتان بينها وبين صلة من تقدم ذكرهم من الشعراء بالأمراء من العرب : كان الأديب يؤلف فيما عنّ له ونال اهتمامه من موضوع ثم يهدى كتابه عند نشره إلى النبيل الذى يتولاه برعايته ، وليس فى هذا ضرر يقاس بالأضرار التى تقدم ذكرها فى الأدب العربى

وقد نشأ منصب شاعر الملك فى انجلترا منذ زمان ، ولكن الشعراء الذين شغلوه لم يترفروا على الملوك توفر شعراء العربية ، ولم يشغل المنصب من كبار الشعراء إلا القليل ، وكان اختيارهم لمنه تقديراً صحيحاً لسالف جهودهم فى عالم الأدب ، ولم يكن ماقالوه بصفتهم شعراء الملك بخير ما قالوا ، ولم يكن بالكثير ، ولم تزل وظيفة شاعر الملك تتضاءل حتى صار المنصب اسمياً فخرياً لا أكثر

وقد جاء الأدب الانجليزى خلاصه من لوثة تشجيع الأمراء – أو بالأحرى تسخير الأمراء – وزلفى الأدباء إليهم حرّ النزعة طليق الفكرة بعيد المرمى صادق التعبير ، يعبر عن إحساسات الفرد ويترجم عن عواطف الجماعة ، وانفسحت أمامه الآفاق إذ خلا من القيود ، فتعددت أغراضه وتكاثرت أوضاعه ، إذ كانت وجهته دائماً وجهة كل الفنون الرفيعة : التعبير الجميل عن شعور الانسان الصحيح بروائع الحياة ، بعيداً عن ذلك الغرض المادى الدخيل الذى تعثّر الأدب العربى فى قيوده طويلاً

فخرى أبو السعود

٣ ـ معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراق

ثانياً — الأوربيون والأحباش

وفى نهاية القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر احتك الفرنسيون بالأحباش على عهد ملكهم « ياسو الأول » الذى أرسل سفيراً حبشياً إلى بلاط الملك لويس الرابع عشر . وفى سنة ١٧٠٥ أرسل الفرنسيون المسيو رول سفيراً إلى الحبشة وتشجع الرهبان اليسوعيون الفرنسيون على الذهاب إلى بلاد الحبشة وأخذوا يحلون محل الرهبان اليسوعيين البرتغاليين.

ولما مات ياسو الأول ثار الأهلون وقتلوا رجال السفارة الفرنسية ، وأراد خلفه أن يحمى اليسوعيين فلم يوفق ؛ وحدثت اضطرابات داخلية فى المملكة استمرت مدة طويلة فاستفاد الصوماليون والغالا المسلمون من ذلك وهجموا بقوات كبيرة على بلاد الحبشة فتوغلوا فيها وأمعنوا فيها قتلاً وتخريباً . والذى زاد الطين بلة أن الرهبان الكاثوليك أرادوا الاستفادة من هذه الاضطرابات وسعوا سعياً حثيثاً لاستمالة الأحباش إلى مذهبهم طالبين منهم أن يتركوا المذهب اليعقوبى . وفى سنة ١٨٣٨ استولى رأس مقاطعة شوعا على العرش فأصبح ملكا على البلاد وعقد معاهدة مع الفرنسيين

ثالثاً — عوقات الدول المستعمرة

فى سنة ١٨٥٥ استولى « عالى » أحد أغنياء الغالا على مملكة شوعا ونصب نفسه ملك ملوك الحبشة . ولم يوطد عالى حكمه فعلاً فى البلاد فاستفاد صهره من الموقف فأصبح عاهلاً على جميع بلاد الحبشة باسم « تيودوروس الثانى » بعد أن استمال قبائل الغالا والأمحرة والتيجرى إلى جانبه ونقل عاصمته إلى أنكوبار ولبس تاج الملك فى القاعدة الدينية « أكسوم » أعلن ذلك على أوربة وغدا ملك ملوك الحبشة . ولم يكن تيودوروس من سلالة الملوك ؛ وكان الملك الشرعى « هايلو ملكوت » ملك شوعا ووالد « ساهلا لا مريام » (منليك الثانى المنتظر) وتغلب تيودوروس على هذا الملك وعامله باحسان

ومن الأمور الاصلاحية التى قام بها الغاء المخصصات التى كان يتمتع بها الرؤوس بالارث فلقى معارضة منهم واستطاع أن يقهرهم . وعاكسه الرهبان فتغلب عليهم ، ولما علم بأن الرؤوس اجتمعوا فى قصر خلسة ليدبروا ثورة عليه ذهب بنفسه إلى القصر المذكور وباغتهم وقتلهم جميعاً ماعدا الأمير الصغير (ساهلا لا مريام) الذى استطاع أن ينجو بنفسه فاراً

وفى دور الاضطراب كان ملوك الحبشة قد حرموا على الأجانب دخول بلاد الحبشة ، بيد أن تيودوروس الغى هذا التحريم زاعماً أن دخول الأجانب الحبشة يفيد أهل البلاد . فأرسل وفوداً إلى ملكة انكلترة فكتوريا وإلى امبراطور فرنسا نابليون الثالث وكلف هذا الأخير بتجديد المعاهدة المعقودة سنة ١٨٤٨

وكان البريطانيون قد أرسلوا قنصلاً إلى الحبشة إلا أنه قتل فى الاضطراب الذى حدث فى سنة ١٨٦٠ . وفى سنة ١٨٦٢ أوفدت ملكة بريطانيا قنصلاً مع الهدايا ، كما أن نابليون الثالث أيضاً أوفد قنصلاً

ولما رأى البريطانيون أن تيودوروس لقى مقاومة فى الداخل وأن جيشه أخذ يضعف بالحروب المدبرة لم يميلوا إلى الاعتماد عليه ، لذلك لما أراد إرسال سفير إلى انكلترة لم يلب طلبه فضلاً عن أن القناصل البريطانيين أخذوا لا يعبأون به

واشترى الفرنسيون جزائر دسس وزولا فى سنة ١٨٥٩ وميناء عبق فى سنة ١٨٦٢ وجعلوها قاعدة لتموين بواخرهم بالفحم ، وأراد تيودوروس أن يرسل سفيراً إلى فرنسا فلم يتلق جواباً من امبراطورها . ولما اطلع على مخابرات القناصل اغتاظ من الأوربيين جميعاً وحبسهم فى قلعة « مجدلة »

فأرسل البريطانيون فى سنة ١٨٦٤ وفداً برآسة السر هرمز رسام[1] ليطلق سراح الأجانب ، إلا أن تيودوروس امتنع وحبس رئيس الوفد أيضاً ؛ فلما رأى البريطانيون ذلك وسطوا الخديو اسماعيل باشا فأرسل كتاباً إلى ملك الحبشة ولكنه لم يتلق جواباً عنه

---

(١) أحد الموصليين الذين عاونوا البعثات الأثرية الانكليزية فى الحفريات فى العراق

وفى سـنة ١٨٦٦ ترك العثمانيون ميناءى مصوع وسواكن لخديو مصر فأصبحتا بعد ذلك من الممتلكات المصرية ، وأضاف المصريون اليهما منطقة زولا أيضاً

واستفاد البريطانيون من هـذا الحادث فقرروا الحملة على الحبشـة فجهزوا جيشاً فى بمبى بقيادة السير روبرت نابر بقوة (١٦,٠٠٠) جنـدى وأنزلوها فى زولا . وساعد الخـديو البريطانيين فى هذه الحركة وأمر محافظ مصوع بالمساعدة ، كما أنه كلف أسـطوله فى البحر الأحمر بأن يكون بجانب البريطانيين وأمدهم بالسفن النقلية ، وقوى البريطانيون هـذا الجيش بجنود أهليين وجهزوه بالوسائط النقلية فبلغت قوته (٤٠,٠٠٠) جندى

ومال بعض رؤوس الأحباش إلى جانب البريطانيين فلم يساعدوا ملكهم على القتال وامتنع رأس شوعا من إرسال الجند . أما رأس تيجرى فاتفق مع البريطانيين الذين طمأنوه قائلين له إنهم لا يقصدون الاستيلاء على الحبشـة وإنما جل ما يريدونه خلع تيودوروس وتنصيب رأس تيجرى بدلاً منـه وأنهم سوف ينسحبون بعد ذلك

وساعد هـذا الاتفاق على حركة الجيش فتقدم من طريق (سـنافة — أدجرات — مكللو — انتالو) ووصل إلى أمام حصون مجدلة ؛ ولما حبطت مساعى تيودوروس لاستمالة الرؤوس إلى جانبه التجأ إلى حصون مجـدلة ولم يكن لديه سوى ٧٠٠٠ جندى وستة وعشرين مدفعاً

وفى ١٣ نيسان سـنة ١٨٥٨ احتل البريطانيون حصون مجدلة واستمر تيودوروس على المقاومة فى آخر حصن ، ولما تيقن من أن المقاومة لا تجدى نفعاً مات منتحراً

فأخذ البريطانيون تاج تيودوروس ومعطفه الملكى وحفظوهما فى المتحف البريطانى فى انكلترا ، وأعادوهما إلى الرأس تفرى لما زار انكلترا فى سنة ١٩٢٤ . وانسحب الجيش البريطانى بعد أن أطلق سراح الأسرى الأجانب وأخذ معه ابن تيودوروس رهينة خشية أن ينتقم لأبيه وأرسله إلى انكلترا فمات فيها

وفى الملاقاة التى تمت بين قائد الجيش البريطانى ورأس تيجرى أهدى السير روبرت نابر ٩٠٠ بندقية إلى الرأس مكافأة له على صداقته

بعد أن بقى هذا الأمير فى الأسر سبع سنوات هرب من منفاه ، وكان عمره إذ ذاك اثنتى عشرة سنة ، ودخل مملكة أبيه شوعا . وبعد حادثة مجدلة أعلن استقلاله فحذا حذوه رأس أمحره ، واستقل الغالا ببلادهم وأخذوا يغيرون على بلاد الحبشة الداخلية جرياً على عادتهم . وهكذا تجزأت المملكة الحبشية التى استطاع تيودوروس أن يجمع كلها ويؤلف منها مملكة كبيرة فى مدة قصيرة

أراد رأس تيجرى كاسيا أن علك البلاد ويوحدها فتحرك على رأس جيشه البالغ ١٢,٠٠٠ جندى فتغلب فى عدوى على جيش رأس أمحرة البالغ ٨٠,٠٠٠ بفضل البنادق التى أخذها من البريطانيين

وفى سـنة ١٨٧٢ أعلن نفسه امبراطوراً على الحبشة باسم « يوحانس السادس » وبعد اثنتى عشرة سنة تفاهم مع رأس شوعا وزوج ابنه من ابنته . وكان من نتيجة ذلك أن أصبح ساهالا مريام حاكماً على مقاطعة شوعا وجميع بلاد غالا ، وذلك ما ساعده بعد ذلك على توحيد المملكة والقبض عليها بيد من حديد فاعترفت باستقلالها الدول الاستعمارية مرغمة

رابعاً — المصريون والأحباش

وبعد تتويج يوحانس فى أكسوم شرع الخديو اسماعيل باشا فى التأهب للزحف على الحبشة جاعلاً سواكن ومصوع قاعدتين لحركته . ولعله كان يطمع فى ضم مقاطعة هرر التى يكثر فيها المسلمون إلى أملاكه والاستيلاء على منابع النيل الأزرق ، أو أنه فكر فى أن توسع الحبشة وتقوية جيشها مما يضر بمصالح المصريين ويجعل بلاد السودان معرضة للغارات ، أو أن الدول الطامعة فى بلاد مصر أرادت أن تشغل الجيش المصرى القوى بالفتوح فى الحبشة وتقضى عليه بالتدريج ، ويجوز أن رغبة الخديو الشخصية كانت ترمى إلى التوسع . والظاهر من مجرى الأحوال أن توجيه المصريين أنظارهم إلى الحبشة قربت النكبة التى أصابت المصريين بعد ذلك

ولا شك فى أن تجهيز الجيوش وارسالها على التعاقب مما أحرج الموقف المالى الذى ساء من جراء بذخ اسماعيل باشا

وفى سنة ١٨٧٢ أنزل المصريون جيشهم إلى سواحل الصومال فى زيلع ، وتقدموا نحو مقاطعة هرر ، ودخلوا شوعا ، إلا أن الرأس ساهالا مريام أجلى الجيش المصرى عنها وقضى عليه بالقرب من بحيرة « أوسة »

وفى سنة ١٨٧٤ احتل المصريون هرر وأنزلوا جيشاً بقوة ١٤,٠٠٠ فى مصوع ، فتقدم نحو عدوى ، فتظاهر رأس تيجرى فى بادىء الأمر بالولاء له ، وفى ليلة ظلماء باغته من كل جهة وقضى عليه ، فلم يفلت منه إلا النزر القليل

وفى سـنة ١٨٧٦ أراد الخديو أن ينتقم من الأحباش ،

جهز جيشاً بقوة ٢٠,٠٠٠ ، وناط قيادته بابنه الأمير حسين باشا وأنزله فى مصوع ؛ ولما تقدم قابله الأحباش بقوة ٢٠٠,٠٠٠ جندى ، وفى المركة التى نشبت فى جرة انكسر الجيش المصرى بعد أن خسر ١٣,٠٠٠ رجل ، فوقع الأمير حسين باشا فى الأسر مع هيئة أركانه ، ولم يخل الأحباش سبيلهم إلا مقابل فدية من المال

والغريب فى هذه الحركات أن الأجانب كانوا يتولون قيادة الجيش كأن المصريين من أهل البلاد لا يستطيعون القيادة ، بينما التاريخ يشهد لهم ببراعتهم فى ذلك ، فالجيش الأول كان قائده موزنجر باشا ، وكان يقود الجيش الثانى ضابط دنمركى الأصل ، أما رئيس أركان الجيش الثالث وأركانه فكانوا اميركيين

وفى الوقت ذاته كان المسلمون فى السودان بقيادة المهدى يهاجمون الحبشة من الشمال ، فدخلوا جوندار وأحرقوها ، وكان من أمر ذلك أن أرغم يوحانس المسلمين القاطنين فى الحبشة على الخروج منها ، وأدى ذلك إلى هجرة كثير من المسلمين من الحبشة بعد أن كانوا متنعمين فيها ، فتشتتوا هنا وهناك ؛ أما الذين بقوا فيها فاضطهدهم الأحباش حتى اضطر بعضهم إلى التنصر ، ولو لم ينزل الطليان إلى الساحة الاستعمارية فى بلاد الحبشة لظل المسلمون مضطهدين ، إلا أن محاولة الطليان التوغل فى بلاد الحبشة اضطرت ملوك الحبشة إلى التساهل مع المسلمين تمهيداً لتوحيد المساعى ازاء هذا العدو الجديد

وبعد أن احتل البريطانيون أرض مصر لم يتدخلوا فى الحروب التى وقعت بين السودانيين والأحباش . ولكى ينتقم يوحانس لوقعة جوندار جهز جيشاً كبيراً وتقدم على رأسه نحو قوات المهدى ، وفى المركة التى وقعت فى متمة ١٣ آذار أواخر (مارس) سنة ١٨٨٩ وقع جريحاً ومات فانكسر جيشه

والحقيقة أن قيام المهدى وبسط نفوذه على السودان وانتصاره على الأحباش جعل البريطانيين يفكرون فى العاقبة ، لأن القوات البريطانية والمصرية وحدها لم تكن كافية للتغلب عليه

ولعل نزول الطليان إلى الساحة كان بتشويق من البريطانيين للتغلب على المهدى من جهة ولمشاغلة الحبشة بقوات جديدة من جهة أخرى لكيلا تسيطر دولة قوية على مياه النيل فتهدد مصالح البريطانيين المتوقعة فى السودان

(يتبع) طه الهاشمى

مذاهب الفلسفة

المذهب الطبيعى *

للأستاذ زكى نجيب محمود

هو ضرب من ضروب الفكر ونحو من أنحاء النظر ، لا يذهب فى بحثه وراء حجب الطبيعة وأستارها ، بل يحصر نفسه فى نطاق الطبيعة وحدها ، يتقصى بالنظر ما شاء من وجوهها ، ثم يقنع بهذا فلا يعدوه قيد أنملة . عنده أن الحقيقة التى لا حقيقة بعدها هى هذه الطبيعة التى تراها بعينك وتلمسها بيديك ، هى هذه الأرض وتلك السماء وما بينهما من أحياء وأشياء ؛ أما أن تيممك الظُّلمة فتحاول أن تنفذ ببصرك إلى ما وراء ذلك ، زاعماً أن ما تدركه الحواس عبث باطل ، وأن الحقيقة الخالدة هى شىء مستور وراء هذه الحجب الصفيقة ، فخداع وجهل فى رأى هذا المذهب ، إذ يرى أشياعه أن الطبيعة لا تبطن شيئاً وتظهر شيئاً آخر ، بل ها هى ذى قد عرضت بضاعتها لمن شاء تحت السمع والبصر ، وهى تسير وفقاً لقانون صارم جازم لا يشذ ولا يلين ، فهو يسيطر بقوته على الكون بكل ما يحوى بين دفتيه ؛ ثم ينهانا أتباع هذا المذهب أن نلقى بالا الى ما قد يزعمه الزاعمون أن هنالك فوق الطبيعة حقيقة خالدة يدركها الفكر وتقصر عن إدراكها الحواس ، فهم لا يصدقون أن يكون ثمت غير ما نرى أو أن يكون فى الطبيعة شىء لا يخضع لقانونها خضوع الجماد الصامت ، ولا يستثنون من قاعدتهم الانسان بكل ما فيه من حياة وفكر وخيال لأنه فى رأيهم هباءة فى يد الطبيعة تطوح بها يمنة أو يسرة كيف شاء لها قانونها الجبار ، وإن الانسان ليخدع نفسه حين يوهمها أنها أرفع من الجماد منزلة وأسمى مقاماً ؛ فان اعترضت على رجال المذهب الطبيعى بأن قانون الطبيعة لا يفسر كل شىء ، وأن هنالك آلافا من الحقائق التى تنتظر الشرح والتعليل أجابوك أن ذلك رهين بالعلم وحده . فلن يفتأ العلم يجد فى كشفها ويسعى ، ولن تزال هى تبدو فى ضوئه واحدة فى إثر واحدة

(*) يحتاج بعض ذوى العقول الضيقة أن ننبه الى أن هذه الفصول انما قصدت للدراسة وحدها ، وبديهى أنها لا تعبر لكاتبها عن رأى خاص

وينقسم المذهب الطبيعى الى شعب تتعدد بتعدد إدراك الانسان لماهية المادة التى تملأ الكون ؛ فان رأيت أن قوام الطبيعة ذوات مادية تتحرك فى المكان ، وأن كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة لا تعدو أن تكون مجموعة متراكمة من تلك الذوات فذلك هو المذهب المادى ؛ وان اعتبرت المادة نفسها ضرباً من ضروب الطاقة والقوة ، فذلك هو المذهب الطاقى Energism ؛ وأما إذا غضضت البصر عن أصل المادة الأول ، ونظرت الى الحقائق كما هى ، مرتبطاً بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول ، فذلك هو ما يسمى بالمذهب الوضعى . . . وكثيراً ما يطلق اسم « المادية » على هذه الشعوب كلها . لأنها مهما اختلفت فهى لم تزد على أن تناولت ظواهر الطبيعة المادية بالشرح والتعليل

وإن هذا المذهب الطبيعى ليبلغ أقصى قوته حينما يقف موقف الانكار والرفض بإزاء ما يتعلق به الانسان من صنوف العقائد وضروب الخيال ، فهو لا يتردد فى أن يتناول الأديان بكفه الباردة فيسحقها بين أنامله ، لأنه لا يرضيه أن ينظر الى الأشياء والحقائق نظرة مجردة عارية من كل ما ألبسها الانسان من زخرف العقيدة وطلاء الخيال ، فيقذفه واحدة ألقى فى اليم كل ما أنتج الفكر البشرى من آراء عن عالم الغيب المجهول ، ولعله بذلك قد كفى نفسه مؤونة البحث فى هذا المطلب الشاق العسير

ومادام هـذا المذهب الفلسفى قد رفض عالم الغيب رفضاً قاطعاً ، فهو إذن لا يعترف بالله إلا أن يكون ذلك هو الطبيعة نفسها ، أو الانسانية ، أو ماشئت من ظواهر الكون المحسوس ؛ وهو كذلك لا يقر الخلود إلا إذا قصد به آثار الانسان الخالدة وظهوره فى أعقابه وما إلى ذلك من ضروب البقاء ؛ أما أن يذهب الظن بالانسان أنه باق بعد الحياة بقاء روحانياً فوهم خاطئ فى رأى هذا المذهب ، إذ ما بقاؤه وهذا جسده قد تبدد أشتاتاً فكان منه الشجر والحجر ؟ ستقول إنه باق بروحه دون جسده ، ولكن ما هو ذلك الروح ؟ أهو جزء من الطبيعة أوعنصر شاذ لا يستقيم مع مادتها ولا يخضع لقانونها ؟ اللهم إن كان هذا فلا روح ، لأنه ليس فى الطبيعة إلا الطبيعة نفسها !

وهـذه الطبيعة تسير وفق سنن مرسومة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، فلكل ظاهرة من ظواهرها أسباب لا بد أن تنتج مسبباتها ، دون أن تحول بينها وبين ذلك معجزة أو خارقة ، ودون أن يكون فى مقدور الانسان أن يغير من مجراها بما يزعم لنفسه من إرادة حرة ، فليس الانسان حراً فيما يفعل وفيما يترك ، إنما هو آلة مجبرة على السير فى طريق رسمتها له الطبيعة كما رسمتها للأنهار والأشجار والأحجار والكواكب وسائر ألوان الجماد . ولكن الانسان المغرور كثيراً ما يلقى فى روعه نفسه أنه حر التصرف برغم أنف الطبيعة ، فيقول مثلاً : إنى لم أقرر بعد ماذا أصنع فى كذا وكذا ، ونسى المسكين أن مجموعة الذرات التى تتكون منها مادته قد قررت له مايصنع – جهل بذلك أو علم – ولم تكن فيما قررت بمعزل عن سائر الكون ، بل اشتركت فى تقريره مع العالم كله ، مع الطبيعة بأسرها . فخفف من غلوائك أيها الانسان ، واعلم أنك لا بد فاعل ما أريد لك أن تفعله ، إذ ليس لك عن فعله منصرف ولا محيص

ومن منا لا يلوى شفتيه من الغضب ، كلا ، بل من ذا الذى لايبتسم ساخراً من هذا المذهب الذى يريد أن ينتزع من الانسان أعز جوانبه وأنفس عناصره ؟ إنه يريد أن يسلبه إرادته فاذا هو صخرة تتحدر من قمة الحياة إلى واديها مدفوعة بقوة القانون ! وليس له أن يقف حيث شاء ولا أن يسلك من السبل ما يشاء ! كيف أكون مكتوف الارادة وهأنذا أحب هذا فأعمله وأكره ذلك فأتركه ؟ فبماذا تسمى هـذا إن لم يكن إرادة حرة مطلقة التصرف ؟ ولكن هاك ما يجيبنا به « سبنسر » : نعم إنك تعمل ما تحب وتترك مالاتحب ، ولكن هل علمت أنك لاتحب إلا ما رغبت فيه الطبيعة ؟ إن مولاتك الطبيعة قد حببتك فيما تراه هى صالحاً لسيرها ، ونفّرتك مما رأته مضراً بها معطلاً لها عن المضى فى سبيلها . فما أحببت أن تعمله إن هو إلا ما أرادتك الطبيعة على حبه : « انك تستطيع أن تعمل كما تحب ، ولكنك لا تستطيع أن تحب كما تحب » . فاختيارك هذا الشىء ورفضك ذاك ، هو الوسيلة التى تتخذها الطبيعة لتنفيذ ارادتها فى سلوك الانسان .

وأين المفر من الطبيعة وهى لا تنى تذكرنا بما لها علينا من نفوذ وسلطان ؟ قطر بالخيال إلى حيث شئت ، فأنت مضطر آخر الأمر أن تنزل فى معمعان الحياة لكى تضعك بين مطرقة

الحقائق الواقعة وسندانها ، تنظمك فى سلكها ، ولا تخلى بينك وبين خيالك ! تحدَّ الطبيعة ما استطعت إلى تحديها من سبيل ، وسترى نفسك بعد حين قصير مرغماً على التسليم والخضوع ، وإلا فماذا أنت صانع أمام غائلة الجوع سوى أن تقتات بما يقيم الأود ؛ ثم ماذا أنت صانع إذا أضناك الاجهاد وأعياك العمل إلا أن تسلم بضرورة النعاس ؟ ثم ماذا تجدى ارادتك مهما بلغت قوتها أمام الموت إذا دنا الأجل ؟ فالطعام والشراب والنوم والموت اعتراف متواصل بخضوع الانسان لضرورات الطبيعة مهما يكن طاغياً جباراً

وكأنى بالعلوم جميعها تناصر هذا المذهب وتؤيده ، وتكاد تضطر العقل اضطرارا إلى اليقين بأن ما يقع فى الطبيعة من أحداث مهما اختلف لونها وتباين شكلها خاضع للعلم وقوانينه التى تضرب بنفوذها على أطراف الكون فلا تدع مجالا ينفذ اليه شىء من القوة المزعومة فيما وراء الطبيعة . وإن احتججت على العلم بأنه مبالغ فى شأن نفسه مسرف فى تقدير عمله ، وأنه لا يزال قاصراً عن إدراك الحقائق كلها ، فكيف يحق له أن ينكر شيئاً قد يكون جزءا مما لم يدركه بعد ؟ نقول إن احتججت على العلم بهذا أجابك فى يقين ثابت ، وكله أمل ورجاء : هأنذا أسير وأتقدم ، ويستحيل ألا يؤدى هذا السير المطرد إلى حل ألغاز الكون كلها ، ولا بد لى أن أصل يوماً إلى غاية الطريق ، فان لم يكن ذلك بعد حين قريب فامتداد الزمن كفيل بكل شىء ، وإن العلم ليتمسك بتطبيق قانون «العلة الواحدة» Law of Parsimony الذى صاغه « وليام أوكام » ، والذى مؤداه أن ما أمكن تعليله بعلة ما لا يجوز تعليله بعلة أخرى . وبناء على هذا القانون لا ينبغى أن نضيف إلى الظواهر الطبيعية التى أمكن تعليلها بقوانين العلم عللا أخرى مما وراء الطبيعة ، فان تمكن العلم أن يتتبع حقائق الكون بالتفسير واحدة فواحدة وجب حتما ألا تتردد فى انكار كل قوة أخرى

ولكن إذا كان أنصار هذا المذهب يريدون أن يحتكموا إلى العلم فى كل شىء ، وأن يفسروا به كل ظاهرة من ظواهر الوجود ، فماذا هم قائلون فى تعليل ظاهرتى الحياة والعقل اللتين تبدوان كأنهما شاذتان نابيتان لا تخضعان لقوانين الطبيعة التى تنتظم الجماد ؟ وأين الجماد من الحياة المتوثبة والعقل المفكر ؟ إنه إن صح مذهبهم للزم أن تكون الحياة قد تفرعت من الجماد الذى لا حياة فيه ، ويستحيل أن يتفرع شىء من أصل لا يحتويه ! إنك تستطيع أن تعلل بالعلم كل ما هو آلى رتيب ، ولكن كيف بالحياة عامة والعقل بنوع خاص ، وبينهما وبين الجماد الآلى من مسافة الخلف ما يكاد يجعلهما ضدين نقيضين ؟

إن للكائنات الحية طابعاً يميزها عن الجماد تميزا واضحاً ، ولعل خير ما يوضح ذلك الطابع المميز هو كلمة « بنفسها » . فالكائن الحى يبنى نفسه بنفسه ، ويصلح عطبه بنفسه ، ويدبر أمره بنفسه ، ويعمل على حفظ بقائه بنفسه ؛ نعم هنالك آلات تطعم نفسها ولكنها لا تنمو بما تطعم ، وهنالك آلات تكتب من تلقاء نفسها ، وسابحات فى الماء تقود نفسها ، ولكن هذه جميعاً لا تصلح لنفسها ما يصيبها من عطب ، ولا تستطيع أن تلائم بين دخيلة نفسها وبين الظروف الخارجية المحيطة بها كما يفعل الكائن الحى ؛ وليس بين الآلات أو صنوف الجماد ما ينشىء فى باطنه نواة فى مقدورها أن تنمو إلى ما يشبه الأصل الذى تفرعت منه ، ثم يكون فيها بدورها قوة انشاء نواة أخرى تعيد تاريخها وهكذا . . . . وأجدر من هذا كله بالذكر من خصائص الحياة التى تنفرد بها وتتميز عن الجماد هو أن الحياة فى كل فرد من الأحياء لا تحصر عملها فى حدود هذا الفرد الذى هى حالة فيه ، بل يمتد نطاقها حتى يشمل النوع بأسره ، أعنى أن الحياة فى كل فرد لا تكتفى بحفظ بقائها هى ، بل تعمل على حفظ النوع كله

تلك هى خصائص الحياة ؛ أما العقل فطابعه الذى يميزه هو علمه بالنفع والضرر ، وهما ما نسميهما باللذة والألم ؛ فكل الكائنات الشاعرة تعرف ما ينفعها فتقبل عليه وما يضرها فتنفر منه ، هذا فضلا عما لها من قوة التفكير التى تستطيع بها أن تكون آراء عن الأشياء الخارجية ثم اتخاذ تلك الآراء وسيلة إلى فهم حقائق تلك الأشياء والوصول إلى ما يسيرها من قوانين وما تقصد اليه من أغراض

(يتبع) زكى نجيب محمود

الذكرى الرابعة لشاعر البادية

الشيخ محمد عبد المطلب

للأستاذ فايد العمروسي

الذكرى لا تتسع لدراسة أو تحليل ، وحسبها أن تكون للقراء خاطرة وفاء ، ونفحة تقدير ؛ وعبد المطلب أحد شعراء العربية الذين خلفوا لنا تراثاً ممتازاً يضاف الى تراثى المرحومين « شوقى » و « حافظ » ؛ غير أن هذا الرجل عاش مغبوناً ، ومات مغبوناً ، شأنه شأن « حافظ » بعد موته ، فلم يفز ديوانها بما كان ينبغى من عناية وتقدير ، اللهم إلا مقالات كتبها كاتب هذه الكلمة فى جريدة البلاغ بعد صدور الديوان فى الجو الأدبى ، وليس هذا بكاف فى تقدير الأدباء للشعر ، وخاصة لأعلامه وفحوله النابغين . والناظر إلى عبد المطلب لا يعرفه فى ديوانه فحسب ، لأنه ديوان ذو روح خاص ، واتجاه صبغته الصنعة فى أكثر مقاصده من فخر وحماسة وشكر ومديح وغزل ونسيب . . الخ وهذه ظواهر ما كان له أن يتخلى عنها وان حاول ، وما كان للفترة التى عاش فيها غير هذه المقاصد الشعرية تمشياً مع ميول الحياة التى ترغم الشاعر أن يتلون بلونها ، والتى تكوّن العناصر الأولى لفكره وخياله !

وقد كان رحمه الله شخصية عربية صميمة ، تنبئ مظاهره الخلقية أنه من سكان نجد أو الحجاز ، فى ضآلة من الجسم ، وقليل من القصر المتزن ، تنطوى هذه الضآلة على قوة الأسد فى عرينه ، تبدو بهما عيناه الواسعتان البراقتان اللتان تفيضان قوة وثقة واعتزازا ؛ وكان ذا نفس أبيّة ، وضمير حى ، وشعور متقد ، وإحساس صادق ، يهيج لأتفه أسباب الخلاعة أو اللهو ، فينفجر بأشد ما تكون الخلاعة قسوة وايلاماً ؛ وكان رجلاً بأسمى ما تكون الرجولة صفاء ونبلاً ، رجلاً جم العطف ، وافر الرحمة فياض الحنان . ولقد رأيته – رحمه الله – أكثر من مرة يسكب الدمع من عينيه لأمور لا تهيج عواطف الناس ، ولكنها تهيج ذوى النفوس السامية ، والاحساس المرهف القوى

وشخصيته على ما كان فيها من خشونة البداوة كانت تذوب رقة وحناناً ، وتفيض عطفاً ووداعة ؛ وديوانه حافل بصور من هذه العاطفة التى فتشت فى نواحى المجتمع المصرى فعالجته بأثمن النصائح وأغلى الحكم ؛ وكم ودَّ تطهير النفوس ، وتهذيب الوجدان ، وصقل الادراك ؛ وكم ودَّ الرقى بالانسان إلى درجات العفة والصفاء . وما أشبه الثلاثة بعضهم ببعض : « حافظ والمنفلوطى وعبد المطلب » فى هذا المجهود ! فترى الأخير يصف أسرة يتيمة بقطع من نفسه ، وذوب من فؤاده ، فى قصيدته العصماء التى استهلها بقوله :

أسألت باكية الدياجى مالها ... أرقت فأرقت النجوم حيالها
باتت تكفكف بالوقار مدامعا ... غلب الأسى عبراتها فأسالها

وفيها يقول :

حتى إذا رقد الأسى بجفونها ... وهفا النعاس برأسها فأمالها
خاب الطوى أحشاءها فتفزعت ... حيرى تمانى سهدها وملالها

وله وطنيات حارة ، ووصف رائع لمشاهد القومية المصرية ، وله علويته المشهورة التى أنشدها على « جمل » متشبهاً بالشعراء فى « عكاظ »

والشاعر على ما أعتقد ليس انتاجا من قصائد عريضة طويلة ، تطن بالرصانة ، وترن بجودة السبك والايجاد ، وإنما هو نفس قبل كل شىء ، وشعور يصدق فيما يحس أو يشاهد ، شعور يمتزج بالمظاهر فيصير جزءا منها أو تصير هى مزيجاً منه ، لا يتخللهما التفريق ، ولا تحتوى هذه المواهب إلا النفوس الممتازة التى لا تنفتح فى دائرة ضيقة محدودة ، ولا تحيط فى نظرها السطحى من الكائنات . وعبد المطلب كان هذه النفس التى تضيق بما فيها من عوالم تائهة ، فتنبعث على الكون طائفة سابحة ، تستشمر ما فيه من جمال فتطرب ، وتحس ما فيه من آلام فتألم ؛ نفس خلقت لغيرها فنال منها كل شىء ، وهى لم تنل من شىء أى شىء ؛ وروح قسمته العاطفة ، ومزقته الرحمة ، فراح يوزع فيه كأنه نهب مستباح ، وهو إلى ذلك مطمئن الخاطر هادئ البال ... وانه شخصية ممتازة فى جوهرها ، قبل أن تكون ممتازة فى شعرها وصنعتها ؛ وكم من قائل إن عبد المطلب قديم فى شعره ، قديم فى عاطفته ، جاهلى فى جميع نواحيه ؛ ولست أدرى كيف تكون العاطفة قديمة ، وهى شعور انسانى لا يتغير فى ذاته وجوهره ، وإن تغير فى اتجاهاته وميوله ،

من تراثنا الأدبي

٣ ـ أبو العينـــاء

بقلم محمود محمود خليل

لقد مات المأمون ؛ ولقد حزن أبو العيناء حقاً عليه ، حتى بكى بكاء مراً ، وتقرحت عيناه ؟ ويظهر من بكائه وحديثه عنه أنه راعى حق النعمة ، وقام بإسداء الشكر لصاحبها ، حتى بكاه بعد وفاته ؛ وسواء أكانت خلة الوفاء موجودة فيه وهو ما لا أظنه ، أم كان بكاؤه هذا لمنفعة شخصية فاتته ، وخاف من انقطاع الرزق الذى أجراه عليه المأمون من بيت المال ، فان هم ضمان قوته كان يخالج فؤاده ، ويخشى من يأتى بعده

ولقد تحققت مخاوفه ، فان عهد المعتصم والواثق لم يظهر فيه شأن أبى العيناء كثيراً ، ويرجع هذا إلى الخصومة التى كانت قائمة بين الوزير فى ذلك العهد محمد بن عبد الملك الزيات ، وبين القاضى أحمد بن أبى دُوَاد ، تلك الخصومة التى اشتدت إلى درجة كبيرة ، حتى جعلت ابن أبى دؤاد يأنف أن يقوم عند دخول ابن الزيات ، وكان قد أوجب الخليفة الواثق أن ينهض قياماً له جميع الحاضرين فى المجلس ، ولم يرخص فى ذلك لأحد ، فاشتد الأمر على القاضى ، ولم يجد لمخالفة الواثق سبيلاً ، فالتجأ إلى حيلة لطيفة تخلصه من ذلك الموقف الحرج ، فوكل بعض غلمانه عراقبته ، ومواقاته بخبر قدومه ، فاذا أقبل نهض يصلى ، فقال ابن الزيات فى ذلك :

صلى الضحى لما استفاد عداوتى ... وأراه ينسك بعدها ويصوم
لا تعدمن عداوة موسومة ... تركتك تقعد تارة وتقوم

ويرجع سبب هذه العداوة إلى المنافسة فى الرياسة التى كانت بين هذين الرجلين الفذين

لم يقف أبو العيناء إزاء تلك العداوة موقف الحياد ، بل انضم إلى القاضى ابن أبى دؤاد ، فأبعده هذا إلى حدّ ما عن مجلس الخليفة المعتصم والواثق ووزيرهما ابن الزيات ؛ وقد انقسم الأدباء أيضاً إلى حزبين ، حتى رأينا الجاحظ يميل إلى ابن الزيات ويكون من حزبه . ولقد سأل أبو العيناء الجاحظ مرة أن يشفع لصاحب له عند ابن الزيات ، فكتب الجاحظ الكتاب ، وناوله الرجل ، فسار به إلى أبى العيناء ، وقال له : قد أسعف بالمراد ، قال : فهل قرأته ؟ قال : لا . إنه مختوم . قال : ويحك فضّه لا يكون صحيفة المتلمّس ؛ ففضّه فاذا فيه : موصل كتابى هذا سألنى فيه أبو العيناء ، وقد عرفتَ سفهه وبذوء لسانه ، وما أراه لمعروفك أهلا ، فان أحسنتَ اليه فلا تحسبه على يدا ، وإن لم تحسن اليه لم أعده عليك ذنباً والسلام . فركب أبو العيناء إلى الجاحظ ، وقال له : قد قرأت كتابك يا أبا عثمان ، فخجل الجاحظ وقال : يا أبا العيناء هذه علامتى فيمن أعتنى به ، قال : فاذا بلغك أن صاحبى قد شتمك فاعلم أنها علامته فيمن شكر معروفه

وصلت العداوة إذن بين الكاتبين القديرين الجاحظ وأبى العيناء ، وكان هذا أثراً لتشيع الحاشية وانقسامها على نفسها كما سبق ؛ وها نحن أولاء نرى أبا العيناء يغشى مجلس القاضى ابن أبى دؤاد فى تلك المدة ، ويتودد اليه ، ويروى عنه أحاديث كثيرة آثرنا أن نثبت منها شيئاً ؛ قال أبو العيناء للقاضى : إن قوماً من أهل البصرة قدموا إلى (سرّ مَنْ رأى) يداً على ، قال : يد الله فوق أيديهم ، فقلت : إن لهم مكراً ، فقال : ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فقلت : إنهم كثير ، فقال : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ، فقلت : لله در القاضى ، فهو كما قالت الصموت الكلابية :

فالشعور الذى يتجه إلى الألم فيستعذبه ، وإلى الهم فيسكبه ، هو الشعور الذى تطربه المسرات ، ويشمله النعيم ، إلا أن انفعالات الشعور الأول من نوع فاتر حزين ، وانفعالات الشعور الثانى من نوع متفتح مرح ، وكلا الشعورين له قيمته وخطره ؛ فالشعور بالألم يكون معظم عناصر الحياة ، كما أن الشعور بالنعيم عس طبيعتها الأولى وحقيقتها الواقعة ، وهما شعوران تخلقهما فى النفوس طبيعة الحياة التى نحياها . فليس فى عبد المطلب قديم ، إذ ليس هناك قديم أو جديد فى الأدب ، فهو فن والفن لا يتغير فى قيمته الجوهرية ، وإن تغير فى عوارضه والمظاهر التى تسلطها عليه نوازع الابتكار . وبعد ، فتلك كلمة لذكرى شاعر البادية عبرة للشعراء ، وتذكرة للأدباء الذين هم أحق بهذه الذكرى ، وتلك الخاطرة . . . . . ؟

ثابت العروسى

لله درك أي جُنة خائف ومتاع دنيا أنت للحدثان
متخمط يطأ الرجال بشهامة وطء الفنيق مدارج القِرْدان
ويكبهم حتى تظل رءوسهم مشجوجة تنحطّ للغربان
ويفرّج الباب الشديد رتاجُه حتى يصير كأنه بابان

وقال أبو العيناء: كنا عند القاضي ابن أبي دؤاد في جماعة من أهل العلم والأدب، فوفد عليه رسول الحاجب أبي منصور يقرئه السلام ويسأله ألا يقصد القاضي إلى الحاجب، لأن ذلك يضر بسمعته عند الوزير ابن الزيات، فقال القاضي: أجيبوه عن رسالته، فلم ندر ما نقول، ونظر بعضنا إلى بعض، فقال: أما عندكم جواب؟ قلنا: القاضي أعزه الله أعلم بجوابه منا، فقال للرسول: اقرأ عليه السلام، وقل له ما أتيتك متكثرا بك من قلة، ولا متعززاً بك من ذلة، ولا طالباً منك رتبة، ولا شاكياً إليك كربة؛ ولكنك رجل ساعدك زمان، وحركك سلطان، ولا علم يؤلف، ولا أصل يعرف، فإن جئتك فبسلطانك، وإن تركتك فلنفسك. فعجبنا من جوابه

على أنه لا يغرنا مجالسة أبي العيناء للقاضي، فإنه قد وقعت بين الرجلين خصومة، فكان لا يرحمه فيها أبو العيناء، مما يدلنا على أنه كان من الرجال النفعيين الذين يؤثرون النفعة الشخصية على تلك الصداقة التي لا تفيده شيئاً من المال الذي يحبه ويفضله على كل عزيز وحميم. ولكن ينبغي ألا نفهم من هذا أن أبا العيناء انضم إلى حزب ابن الزيات. كلا. بل أبغض الرجلين جميعاً، وذمهما معاً، وهذا حديث طريف أتى به صاحب زهر الآداب وقد آثرت أن آتي بجزء صالح منه حتى يكون معيناً لنا على الوقوف على مقدار بلاغة الرجل وأسلوبه في الكتابة

قال أبو العيناء: لما حبس الواثق إبراهيم بن رباح، وكان له صديقاً، صنعت له هذا الخبر راجياً أن ينتهي إلى أمير المؤمنين فينتفع به؛ ولقد سمعه الواثق فضحك واستظرفه، وقال ما صنع هذا كله إلا أبو العيناء بسبب إبراهيم بن رباح، وأمر بتخليته. والخبر هو: قال لقيت أعرابياً من بني كلاب، فقلت له ما عندك من خبر هذا العسكر؟ قال قتل أرضا عالمها؛ قلت فما عندك من خبر الخليفة؟ قال بخبخ في عزه، وضرب بجرانه، وأخذ الدرهم من مصره، وأرعف قلم كل كاتب بجنايته؛ قلت فما عندك في أحمد بن أبي دؤاد؟ قال: عضلة من العضل لا تطاق، وجندلة لا ترام، ينتحى بالمدى لتنحره فيجوز؛ وتنصب له الحبائل، حتى تقول الآن، ثم يطفر طفرة الذئب، ويخرج خروج الضب؛ والخليفة يحنو عليه، والقرآن آخذ بضبعيه. قلت فما عندك من خبر ابن الزيات؟ قال ذلك وسع الورى شره، وبطن بالأمور خيره، فله في كل يوم صريع، لا يظهر فيه أثر ناب ولا مخلب، إلا بتسديد الرأي.

قلت فما عندك من خبر إبراهيم بن رباح؟ قال ذاك رجل أوبقه كرمه، وإن بقره للكرام قدح، فلا عزّ بهجائه؛ ومعه دعاء لا يخذله، ورب لا يسلمه، وخليفة لا يظلمه. ثم يأخذ في الحديث عن شأن أناس كثيرين من رجال الدولة مثل الخصيب والحسن بن وهب وأخيه سليمان، وهذا لا يعنينا في شيء لأننا لا ندرس أولئك الرجال الآن، ثم يقول قلت له: أين نزلت فأؤمك؟ قال مالي منزل تؤمه، أنا أستتر في الليل إذا عسعس، وأنتشر في الصبح إذا تنفس

ويلوح لي أن تلك الأحاديث هي التي فتحت باب المقامات، وأوجدت الفكرة الرئيسية فيها، حتى نسج على منوالها بديع الزمان الهمذاني والحريري فيما بعد

قد عادى أبو العيناء ابن أبي دؤاد، ولكنه لم يمض في الخصومة إلى حد كبير، بل حفظ له جميل كرمه وقضاء حوائجه التي كثيراً ما كان يضايقه بها إبقاء على وده وصداقته ما دامت تجر عليه المنفعة حينا. قال له المتوكل يوماً: من أسخى من رأيت؟ قال ابن أبي دؤاد، فقال المتوكل تأتي إلى رجل رفضته فتنسبه إلى السخاء. قال إن الصدق يا أمير المؤمنين ليس في موضع من المواضع أنفق منه في مجلسك، وإن الناس يغلطون فيمن ينسبونه إلى الجود، لأن سخاء البرامكة منسوب إلى الرشيد، وسخاء الفضل والحسن ابني سهل منسوب إلى المأمون؛ فإذا نسب الناس الفتح وعبيد الله ابني يحيى بن خاقان إلى السخاء، فذلك سخاؤك يا أمير المؤمنين. قال صدقت

فمن هذا نعلم مبلغ تلك الخصومة وأنها كانت طفيفة، ويظهر أن سببها كان عدم إجابة طلب لأبي العيناء أو قبوله شفاعة، أو نحو ذلك من الأشياء التي كان يتطاول بها أبو العيناء على الرؤساء

دامت المنافسة على الرياسة بين ابن الزيات وابن أبي دؤاد مدة خلافة المعتصم والواثق حتى تولى المتوكل، وفي السنة الثانية من خلافته نكب ابن الزيات وأحرقه في التنور [1]، وخلا الجو

(١) ويقول أستاذنا الاسكندري إنه أدخله في تنور مملوء بالمسامير وعذبه فيه حتى مات صبراً وهذه الطريقة هي التي كان يغتال بها الناس

بهذا الحزب ابن أبي دواد ، ووجد أبو العيناء الميدان أمامه فسيحاً ، فاتصل بالمتوكل وحصلت له معه مجالس أدخل الرواة بعضها في بعض ؛ ويظهر أن أعداءه قد وشوا به إلى الخليفة كي يوقعوه فيما وقع فيه ابن الزيات ، ولكنه بفصاحته وذلاقة لسانه نجا . قال له المتوكل : بلغني أنك رافضي ، فقال يا أمير المؤمنين وكيف أكون رافضياً وبلدي البصرة ، ومنشئي في مسجد جامعها ، وأستاذي الأصمعي ، وليس يخلو القوم أن يكونوا أرادوا الدين أو الدنيا ، فان كانوا أرادوا الدين فقد أجمع الناس على تقديم من أخروا ، وتأخير من قدموا وإن كانوا أرادوا الدنيا ، فأنت وآباؤك أمراء المؤمنين ، لا دين إلا بك ، ولا دنيا إلا معك . وكانت تلك الوشاية كفيلة بأن تقضي عليه ، لأن المتوكل كان يكره الرافضة الذين يدينون بحب عليّ بن أبي طالب (ض) ولكنه تخلص بذكائه

ودخل أبو العيناء على المتوكل في قصره المعروف بالجعفري فقال له الخليفة ما تقول في دارنا هذه ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن الناس بنوا الدور في الدنيا ، وأنت بنيت الدنيا في دارك . فاستحسن كلامه وقال : كيف شرابك للخمر ؟ قال أعجز عن قليله ، وأفتضح عند كثيره ؛ فقال له الخليفة دع عنك هذا ونادمنا ، فقال لا أطيق ذلك ، وما أقول هذا جهلا بما لي في هذا المجلس من الشرف ، ولكني رجل مكفوف البصر ، وكل من في مجلسك يخدمك ، وأنا محتاج أن أخدم ، ولست آمن من أن تنظر إلى بعين راض ، وقلبك على غضبان ، أو بعين غضبان وقلبك راض ، ومتى لم أميز بين هذين هلكت ، فأختار العافية على التعرض للبلاء . قال صدقت ، ولكن تلزمنا ، قال لزوم الفرض الواجب اللازم . فوصلني بعشرة آلاف درهم

تلك كانت منزلة أبي العيناء عند المتوكل يتمنى أن ينادمه ، ويود ولو بجدع الأنف أن يتاح له حضور شخص فكه المحاضرة ، عذب الحديث كأبي العيناء في مجلس شرابه ، وقد كان المتوكل يمزح معه كثيراً قال له مرة : هل رأيت طالبياً حسن الوجه قط . قال يا أمير المؤمنين أرأيت أحداً قط سأل ضريراً عن هذا ! قال لم تكن ضريراً فيما تقدم ، وإنما سألتك عما سلف ؟ قال نعم ، رأيت منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتى ما رأيت أجمل منه . قال المتوكل : تجده كان مؤاجَرا ، وتجدك كنت قوادا عليه ، فقال أبو العيناء : أو فرغت لهذا يا أمير المؤمنين ، أتراني أدع موالي على كثرتهم ، وأقود على الغرباء ، قال اسكت يا مأبون ؛ قال مولى القوم منهم ، قال المتوكل أردت أن أشتفي منهم ، فاشتفى لهم مني

على أن عدم قبول أبي العيناء لمنادمة المتوكل قد عصمه الى حد ما من القصف والمجون اللذين كان يجري في قصر الخلافة ، وإن كنت أعتقد أن شخصاً متوقد الذكاء كأبي العيناء قد حمى نفسه من معاقرة الخمور ، خوفاً من أن تضيع عقله ، وتغلب على لبه ، فيخرج عن صوابه ، وهو ما كان يأباه على نفسه ، فجوابه إذاً للمتوكل حين سأله عن الشراب بقوله : أعجز عن قليله ، وأفتضح عند كثيره لم يكن للتخلص من منادمته ، وإنما كان صادقاً في هذا القول ، وإن كان قد ذهب الى الاستمتاع بملذات الحياة من غير طريق الشراب ، كلما حان له ذلك ، ولكن ذهابي الى هذا الرأي ليس معناه تنزيه أبي العيناء وجعله في عصمة الأنبياء والصديقين بل ربما يكون قد شرب ونادم وأفرط في الشراب والقصف وأخذ بحظه من اللهو والمجون مع غير المتوكل ، لكنني لا أميل الى اتهامه بأنه كان من المعاقرين للشراب والمدمنين على قرع الكؤوس ، كالمتوكل أو وزيره الفتح بن خاقان مثلاً ، كلا . وإنما كان لا يميل الى تعاطي الكثير من الخمور لأنها تجره الى الافتضاح كما يقول

(يتبع) الزقازيق محمود محمود خليل

١ – عمرو بن العاص

بقلم حسين مؤنس

أصبح الرجل محزوناً كاسف البال ، لم يبرح غرفته بل لم يبرح مكانه ، وإنما هو مقيم حيث تركه ابنه عبد الله أمس ، ساكنا لا يريم ، صامتاً لا ينبس ؛ وقد ارتسمت على وجهه أسارير من الحزن لا تخفى ، وتراءت في قسماته ملامح من القلق الممض المشجي . . . بل كانت لا تخفى في عينيه علائم السهر الطويل . . . ومن يدري فربما انقضت هذه الليلة ولم يغمض له جفن ، وربما أرق ليلة الأمس كذلك ، وربما طواها مسهداً في هذه الغرفة التي لا يبرحها . . . إنه يفكر تفكيراً طويلاً . . يفكر ويخاطب نفسه ويقلب كفيه ، ويهمهم وإنه لينظر نظر الشجي « استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك . . » والله لقد خلتها يا عثمان . . . ! ثم يعود فيردد : « لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت ! [١] » .. إن الحزن ليشتد بالرجل وإن الدمع ليترقرق في عينيه وإنه ليحني رأسه ويصمت صمتاً طويلاً . . وبينما هو في ذلك إذا يد خفيفة تمر على كتفه في رفق ، وإذا صوت رقيق يهتف به : « رويدك يا ابن العاص . . » فيلتفت اليه ويقول : « حتى نحن يا سلامة .. [٢] » . فيجيبه : « لقد متع الضحى » فيسترسل الرجل مرة أخرى في تفكيره ثم يقول : « رحمك الله يا ابن حنتمه . . [٣] والله لقد كانت فيك على شدتك رقة ، وعلى جفائك وداً .. أما هذا .. أما هذا .. » فيقاطعه سلامة قائلاً : فليغفر له الله . . . « فيرد عليه محتداً . . » لا يا ابن روح . . لا غفر الله له أبداً . . لا غفر الله له أبداً . . لقد وليها عاصرة . . ولن يعقبها حتى ينعق عليها البوم . . لقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فرضي عنا ، وعملنا لخليفته فأكرمنا . . وعملنا لعمر فانصرف عنا قرير العين ، ثم جاءت أيامك يا ابن عفان . . !

ويصمت الرجلان صمتاً بليغاً ، ويسرع بهما الفكر إلى الجزيرة التي فرا بنفسيهما منها . . واطمأنا إلى الراحة في هذا القصر الذي يملكه عمرو في فلسطين ، فهذه جزيرة العرب تموج موجاً وتضطرب اضطراباً ، وقد فوقت اليها الفتنة سهاماً صائبات . . واصطلحت عليها من الشر حادثات .. وهذا عثمان في بيته بالمدينة وحيداً لا يطرق بابه أحد ، فريداً لا يذكره أخ ولا ناصح بعد الذي كان من تقريبه لآل أمية وآل مروان ، وبعد الذي كان من خصومته مع علي وازوراره عن طلحة والزبير وعزله الصالحين من ولاة عمر .. وها هي ذي الفتنة تتحرك في مضاجعها ... والثائرون يتواصلون ويتبايعون الشكوى ويجمع بينهم الظلم . . وهذا أبو ذر الغفاري يطوف ببلاد الاسلام يثير الفتنة ويقلب الأرض على عثمان ... وهذا علي يباعد ما بينه وبين الخليفة مخافة أن يصيبه آل أمية بشر ! وهم الساعة أصحاب الأمر وذوو السلطان على الخليفة الورع اللين الرقيق ... وهم اليوم لبني هاشم بالمرصاد ، وإن للبيتين فيما مضى لشأناً . وإن لهما فيما يقبل من الأيام لشأناً أكبر . وقد اسخطته من عثمان أمور ونفرته منه شرور . وما يطيق الرجل صمتاً على ابن أبي سرح والياً على مصر ، مكان ابن العاص القدير . فما زاد عثمان على أن أقام على الناس رجلاً كرهه الرسول ولم يرض عنه الا شفاعة وسماحة ... ثم سكت طويلاً ثم أخذ يردد هذا الرجز الذي سيكون له في المحنة المقبلة أي شأن ، والذي ستردده الجموع في الشام وتهتف به الجحافل في العراق ... ويتردد صداه بعد ذلك على مدى الأيام :

أصبحت الأمة في أمر عجب ... والأمر مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب ... إن غداً تهلك أعلام العرب !

ثم بدا له فقام من مجلسه . . وأطل من النافذة على فناء « العجلان [١] » فاذا أعرابي يسعى على راحلته وهو يردي بها مسرعاً . فهتف به فوقف ، وسأله كيف عثمان :

فقال الاعرابي : قد تركته محصوراً شديد الحصار

ثم تركه وتولى مسرعاً

وأي هلاك . ! خليفة الله محصور . إن الأمر ليشتد وإن العاصفة لتنذر وإن العقبى لوخيمة . ترى أعيل صبر العرب فأتوا يقومون الخليفة بالسيوف . هنا أحس عمرو أنه لم يحسن الصنيع حين ترك عثمان وحده في المدينة ، وأخذ يسائل : ترى ماذا يصنع علي وماذا تصنع البقية من الصحابة . إن فيهم لعصمة لابن عفان

(١) من حديث عثمان بن عفان لعمرو بن العاص
(٢) هو سلامة بن روح الجذامي
(٣) هو عمر بن الخطاب

(١) قصر عمرو بن العاص في فلسطين

مما يراد به . . ولكن ما عساهم يصنعون وقد أبى عثمان أن يلق لهم بالاً . فلتنفعه عصبية بني حرب لو كان فيهم خير . وليعصمه ابن أبي سرح لو كان يستطيع . أما الصحابة فهاهم أولاء يعتزل منهم نفر فيهم سعد بن أبي وقاص ، ويعلن العداء منهم نفر وفيهم أبو ذر الغفاري ، ويشتد منهم نفر ولا يتحرج أن ينقد عثمان النقد الجارح الشديد وفيهم علي ، وتنصرف منهم طائفة إلى ذات نفسها تجمع المال وتؤلف الأنصار وتعد العدة لما عسى أن يحدث من الأحداث وفيهم معاوية . ثم نظر فاذا شرذمة من الأعراب على الخيل والجمال يسمون نحو الشمال . وكان انصراف العرب عن الحجاز قد كثر هذه الأيام ، وإذا بهم يعلنون مقتل عثمان في شيء من الانكار والخوف والهلع . فاذا استوقفهم وسألهم فوصفوا له الأمر وصفاً دقيقاً ، ثم تولوا وتولى ، فاذا سلامة قد ترك المصحف الذي كان يقرأ فيه ووقع الخبر في نفسه موقع الصاعقة . وريمت نفسه ولم يطق على الأمر صبراً . فنهض من مجلسه ونظر إلى عمرو فاذا به شجي يشرق بالدمع فقال له وإنه ليمانى ألماً بليغاً : « يا معشر قريش ! إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه ، فما حملكم على ذلك ؟ » فقال عمرو وإنه لذاهل : « أردنا أن نخرج الحق من خاصرة الباطل ليكون الناس في الحق شرعاً سواء . »

* * *

وهل أصبح الناس الآن في الحق شرعاً سواء . . ؟ أجل ! وقد ذهب ولي الأمر وأصبح السيف بين الناس حكماً . . وليطلب الأمر من يجد في نفسه الاقتدار على النهوض به . . ترى من يكون هذا المقتدر الذي سيملك ناصية الأمر ويقدر له الفوز بهذا الغنم العظيم ؟ كذلك كان ابن العاص يسائل نفسه . . وكذلك كان يمضي في نظر المسألة والتدقيق فيها . . . بدأ يستعرض جوانب القوة واحداً فواحداً ويوازن بين ما لديهم من « القدرة » لا من « الحق » موازنة طويلة حتى لا يخفى عليه منها وجه من وجوه الرأي . . . وهـذا رجل يتقن الحساب ويجيد المساومة . . . ولا يخطئ في تقدير ربحه من أي النواحي . . ولقد كان هـذا موقفه في كل أزمة . . وتلك حاله قبيل كل عاصفة . . يقف ساكناً ويفكر طويلاً . . ثم يساوم في حرص . . وأخذ يستعرض ما انقضى من أيامه عسى يلق الماضي على الحاضر ضوءاً ... إنه ليذكر موقفه قبيل إسلامه ... وقد بدأ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهر شيئاً فشيئاً ... وبدأ الخوف من ناحيته يدب في قلوب قريش ... وإن طائفة منهم لتشتد في عداوته شدة جاهلية ... وإن طائفة أخرى لتسرع إلى رايته فتنضوي تحتها ... وإن طائفة ليثقل عليها الأمر فتدع الميدان وتعتزل الحياة ... ولكن عمراً لا يميل إلى أحد الجانبين ولا يعتزل بل يزن كل ناحية على مهل ... ويقدر تقديراً طويلاً بل هو يبتعد عن الميدان كله إلى بلاد الحبشة ... وهناك يرقب الأمور في صبر وحرص كما يرقب التاجر أسعار السوق ... فاذا استبان له رجحان كفة الاسلام ... وإذ رأى كنوز النصر تخفق ... في بدر وفي الخندق ، فقد أقبل اقبال الواثق ليتم الصفقة وليشتري عن ثقة ... ولكنه بعد ذلك كله يرجو أن يكون كسبه من الأمر أكثر من كسب الآخرين ، إنه ليعود من الحبشة مسرعاً وقد حزم أمره على الدخول في الاسلام ... ولكن انظر كيف أقنع نفسه بالبيعة للرسول ، لقد بعثت إليه قريش تسأله ما عقد عليه النية ... فلا يعلن اسلامه إعلان عمر ، ولا يفسر إيمانه تفسير أبي بكر أو عثمان ... وإنما هو يقول للرسول : أنحن أهدى أم فارس والروم ؟ فيقول الرسول : « بل فارس والروم » فيقول عمرو ... فما ينفعنا فضلنا عليهم في الهدى إن لم تكن إلا هذه الدنيا وهم أكثر فيها أمراً ، قد وقع في نفسي أن ما يقول محمد من البعث حق ... هـذا منطق الرجل في الايمان وهكذا يستوثق لنفسه من أنه لا « خسارة » عليها في ذلك ، ثم يمضي حتى إذا أقبل على الرسول الكريم ومد يده فقد قبضها ، فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : « أردت أن أشترط ! » نعم يريد أن يشترط ... يريد أن « يكسب » شيئاً في هـذه البيعة الجديدة ... فاذا سأله الرسول ما يشترط فقد تريث لحظة ... وبدا له فطوى ما كان يريد أن يقول ... وساعفته بديهته ... فقال « يا رسول الله ... إني أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي ، ولا أذكر ما تأخر » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عمرو ! بايع فان الاسلام يجبُّ ما قبله وإن الهجرة تجب ما قبلها[1] » ... إنه يريد أن يشترط دائماً ... هكذا كان موقفه في كل أمر

(البحث بقية) صبحي مؤنس

(١) الطبري : ج ٣ ، ص ١٠٣ — ١٠٤

تحطمي تحطمي!

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

يا ليل للنجم اكتم   ويا نهار أظلم
يا أدمعي فيضي ويا   نار فؤادي اضطرمي
نفسيَ لي قد آلمت   فقل لها تألمي
كثل ما حطمتني   تحطمي تحطمي
مسؤولةٌ يا نفس أنـ   ـتِ عن حياتي ودمي
ندمتِ مما جئتِـه   ولات حين مندم
بكِ العِدى تهكمت   وأنتِ للتهكم
من قال إن لاقيت نا   راً تلتظي فاقتحمي
ألم أقل تريثي   فيما عزمتِ تسلمي
مشيتِ بي في مزلق   صعب فزلّت قدمي
ما أنتِ من ذمي بري   ئةٌ فلا تختصمي
من ذا الذي أغراكِ يا   نفسي على التقحّم
قولي أجيبي بيّني   شيئاً أزيلي تُهَمي
لا تلبثي ساكتة   تكلّمي تكلّمي
يا نفس هذا وقت إن   تبكي فلا تبتسمي
يا نفس من نفسك قبـ   ـل أن تموتي انتقمي
بالكف يا نفسيَ قد   صفعتِني في الهرم
للشيب في رأسيَ وا   لقذال لم تحترمي
أصبحتُ من موتي قريـ   ـباً فأقيمي مأتمي
أنتِ حقيرة بعيـ   ـن الفيلسوف الفهم
وإن ترديتِ ثيا   بَ السيّد المحترم
أخرجتِني من ساحة الـ   ـنور لساح الظلم
فصرتُ في مشيي على   وجهي الغظيم أرتمي
هل عائدٌ إليَّ عهـ   ـدُ عيشيَ المنصرم
ماذا أقول والأسى   قيدُ لساني وفمي
وإن تكلمتُ فهل   تردّ حقي كلمي
الهمُّ في رأسي كأنـ   ـه لظى جهنم
وهو إلى قلبي كجيـ   ـشٍ زاحفٍ عرمرم
تحسبه مخيِّماً   وليس بالمخيِّم
لا أستطيع الخوضَ بعـ   ـد الشيب في المعطمطم
أخاف أن يبلعني الـ   ـتيارُ بلعَ اللهم

* * *

أأنني في يقظة   أم انني في حُلُم
المرء بالأفعال لا   بالقول والتكلم
لقد رميتُ أسهماً   فارتدّ نحوي أسهمي
جرحن جلدي ثم لحـ   ـمي وبلغنَ أعظمي
فياله من حادث   للروح مني مؤلم
أنتِ به مسؤولةٌ   ما أنا بالمتهم
في الموت كلُّ راحتي   وبالردى مُعتصَمي
إذا هلكتُ فادفنو   ني بالمكان الأشأم
قد عششت فيه على الـ   أرماس أمّ قشعم

بغداد   جميل صدقي الزهاوي

النجاح

للأستاذ عبد الرحمن شكري

أنت رب الأوشاب والأعلياء   وجماع الجهود والأهواء
تُلْبِسُ المرء منك حُلَّةَ فضل   يلهج الناس حولها بالثناء
أي فضل للمرء إنْ لم تَحُكْهُ   وذكاء إنْ لم تكن في الذكاء
فُرَصُ العيش كلها لك جند   والمطايا مواثلٌ كالإماء
وصروف الأقدار طراً عبيد   للذي تصطفيه للآلاء
لا يضير الذي اصطفيت عداه   لا ولا يُزدرى لفرط الغباء
ويود الذكي لو كان غِراً   ثم تكسوه حلة الأذكياء
أنت سِحْرٌ يكسو القبيح جمالاً   ويُنِيلُ الوضيعَ أُفْقَ العلاء
وينيل القميء أجنحة النسـ   ـر فيغدو لقومه كسماء
يرتجي الناس غيثها وعلاها   بخشوعٍ وذِلة ورياء
إيه يا مالك القلوب قلوب الـ   ـناس طراً طوع الهَنا والعطاء
رُبَّ قلبٍ ثُمّاً كِسٍ لك في البيـ   ـع وذاك المكاس غير الإباء
تنثر التبر مثلما تبعث الشمـ   ـس بأضوائها على الأرجاء
فوق وغدٍ أو فوق غِرٍّ حَظِيّ   أو على ظافر من الفضلاء
لك ثوب يُخفي العيوبَ ويحبو الـ   ـفضلَ فضلاً من رونق اللألاء
قَدَرٌ حاكه وليس صَنَاعٌ   كصناع يدعونه بالقضاء
معدن الخير والفضيلة والحكـ   ـمة من يرتدي بذاك الرداء
أي فضل تمطي القويَّ قواه   إن عداه النجاح في الأحياء
أي صيتٍ يُجْدِي الذكيَّ بيانٌ   لم يُصِبْ نهزة من الإصغاء
أي فضل يحبو الحكيمَ نُهاهُ   وهو لولا الأنصار كالأغبياء
سَرَفٌ أنْ أضاعه الدهرُ لا يُفـ   ـقِر دهراً أضاعه من ثراء
أترى التبر لو يظل دفيناً   كان يجبي أطايب الأشياء
أترى الحسن كان يُعتدُّ حسناً   وهو في خفية عن البصراء
يغنم الظافر السعيد وإن كا   نَ ذنب منه النقاد بُطْلَ الطلاء
وهو في أعين الأنام نضار   وسواه في الخلق كالدقعاء
يغفر الناس شَرَّه وأذاه   ويعدونه بمحض الولاء
إنما الحق ما رأى الناس حقاً   ثابتاً في عقيدة الأهواء
والشريف الذي يرون شريفاً   نال أو لم ينل مدى الشرفاء
والكريم الذي يرون كريماً   حاز أو لم يحز هوى الخبراء
صاح لو يُنْبَذُ المُزَيَّفُ طراً   حَرَبَ الناسَ كلٌّ هذا الإباء
ثم باءوا بحيرةٍ وضلال   في دعاوى العقول والآراء
وإذا النجح لم يكن منه ميزا   نٌ فكلٌّ مُزَيَّفُ الأنباء
كن جديراً به وإنْ لم تنله   إنما الحقد آلة الأدنياء
ويضير الأنامَ كيدُ حَقُودٍ   صد عن خير مطمح وعلاء
فدع الناس يكلفون بما شا   ءوا وَعِشْ في حقيقة الأشياء
إنْ تجدها أو لم تجدها فلله   يِّ والجد نشوة الصهباء
نشوة النجح نشوة السعي والخا   سر من لم يَفُزْ له بطلاء
واصل الأحقاد ما صَغَّرَ النجـ   ـح وأنحى عليه بالازراء
ورجاء للنجح خير من النجـ   ـح فعش من طلابه في رخاء
إنَّ بُعْدَ الرجاء أنْ تبلغ القصـ   ـد ولا قصد بعد نيل الرجاء
ولقد ينكب النجاح أناساً   بالذي فاق نكبة الشقاء
والسعيد المحروم من أسلم الأطـ   ـماعَ طُراً لصرف حكم القضاء
ويود الذي تود له الأقـ   ـدار يبقى فيها رخاء الرضاء
ذاك خُبْرٌ يغري الحكيم وإنشقـ   ـقَ فيُلْفِي رخاءه في العزاء
ولقد يحبط الطَمُوحُ إذا زحـ   ـزحه الهمُّ عنه بالإعياء
وفُرُوضُ الحياة أخلق بالسعـ   ـي وأحجى من اقتعاد السماء
إنَّ أعلى من العلاء خليقاً   بعلاء لا حائزاً للعلاء
والسعيد الحظيُّ من رُزِقَ الجَدْ   دَ وفي الجد مصرع الثؤباء
هو طب الملال إنْ أعنت العيـ   ـشُ وغالت غوائل البأساء
وسواء نُجْحٌ وفوتٌ إذا أجـ   ـدت ما في مسعاته من دواء
والشقي المحروم من لا يرى في الـ   ـعيش فرضاً ينأى به عن شقاء
ذاك من مات قلبه وهو حي   وغدت نفسه كقفر خلاء
خاصمته النعماء في كل أمر   وبدت فيه وحشة البيداء
خيبة المرء أن يمل مُنَاهُ   لا تمادي الحرمان والإبطاء

ولعل الابطاء فى النجح أهنا   وقصارى المبذول للازراء
ويُمَلُّ العطاء بعد أوان   كمزوفٍ من طول بُعْدِ الغناء
والفتى لا يمل فرضاً مُعاداً   كل يوم مُوَفَّقُ السعداء
لاينال البعيدَ من لايرى الأد   نى سبيلاً يُدْنِي إلى البعداء
خطوة إثْرَ خطوة هكذا سـ   ـنة عيشٍ وسنةٌ فى الجراء
وامتناع الطليب أهون من أنْ   يندب المرء خيبة الأهواء
هو خطب أدهى من الفوت وقعاً   وهو داء أشد من ذا الداء
كالذى يستطب بالخطب من خط   ب ويُقصِى الأدواء بالأدواء
ليس يُدْعَى الرضاء يأساً فكم را   ضٍ وفى سعيه دبيب الرجاء
والفتى يستدر نجحاً من الخيـ   ـبة أحجى برفعةٍ وعلاء
فاذا ما نكصت فى العيش فاعْلَمْ   ليس فى العيش موطن للنجاء
يُدْخِلُ المرء نفسه فى الرزايا   كى يُدَاوَى من رعدة الجبناء
مثلما أسمعوا الجيادَ صليلاً   كى يهون الصليل فى الهيجاء
صاحِ ما العيش بالمُخَلَّدِ فى الدهـ   ـر فترتد ناكصاً للوراء
وإذا ما ارتخصتَ ما هو مبذو   ل ويارُبَّ مُرْخَصٍ مِنْ سخاء
فالهواء الحياةُ وهو مُذَالٌ   لو نأى كان مُنْيَةَ الأحياء
لا تَقلْ خيبة الرجاء سموم   فالشقىُّ الشقىُّ بالأسماء
إنَّ بعض السموم منه دواء   كدواء الرمداء بالظلماء
وإذا ما هممتَ بالخير لا تو   لعْ بكسب الاجلال والاطراء
ليس بين الاطراء والذم إلا   كانطباق الجفون فى الاغفاء
واللبيب العليم بالناس لا يغـ   ـتر بالمدح منهمُ والهجاء
غايظوا الراجح السعيد بمَنْ خا   ب ولو فاز كان فى البغضاء
يزعمون الخُيَّابَ أحجى بفوزٍ   قد لواه القضاء ذو الأخطاء
زعموا الدهرَ يظلم الندب إذ يـ   ـمنح بثأر اللئام والأدنياء
فاذا الندب نال شأواً أعدُّوا   ما أعدوا له من الايذاء
ولعمرى لو بُيِّنَ النقص والفضـ   ـل لكانوا فى النقص كالشركاء
باتفاقٍ أو باقتدار نجاح   كان أو لم يكن لدى الفضلاء
ولو أنَّ المفضولَ لم يُلْفِ نُجْحاً   ضاعف الفَوْتُ غبنَ صرف القضاء
نابَهُ النقص من قضاء فان خا   ب فغبنٌ مضاعَفٌ فى الجزاء
ليس فوزُ الأباة قدرَ شقاء   هزم الذل نخوةَ الأحياء
لا بل الفوز صحة واقتدار   ويذل للذخر أو للحياء
وبأَنْ تَطَّبِي رضاء ذوى الجا   ه وأهلَ الجدود والأقوياء
وباحباط من يكيد بكيد   رب فوزٍ مستجلب بالدهاء
وباطراء من ترى منه نفعاً   وبإرضاء كل دانٍ ونائى
واحتذاء الحياةُ ترضى الذى تر   ضاه من شيمة ومن سيماء
وَبأَنْ لا تعاف كِذباً ولا خُلْـ   ـقاً يدانى من مَطْلبٍ ورجاء
فاذا عفت كان سعدك فى الخيـ   ـبة والنجح من صنوف الشقاء
رُبَّ فَوْتٍ للمرء منه سقام   وهو فى جسم آخرٍ كالدواء
وكذا النجح منه عِزٌّ ونعما   ء ونجح يُلِمُّ بالبرحاء

عبد الرحمن شكرى



صور من هوميروس

١٣ - حروب طروادة

مقتل بتروكلوس

للأستاذ دريني خشبة

قتل ساربيدون ملك ليسيا وقائد فرسانها ، وأشجع مقاتل في جيش طروادة بعد هكتور ؟ ووقف بتروكلوس على جثته يصليها سخرية وهزوا ، ناسياً أنه إنما يهزأ بابن زيوس سيد الآلهة ، من آرزوجاته اليه ، أوروبا الجميلة الفتان ، التي وقفت من ذروة جبل إيدا تنظر إلى المعركة الحمراء ، وتشهد مقتل ابنها . . . وتبكي ! !

وتثور ثائرة الأم التاعسة ، وتهيب بالآلـه الأكبر أن يحمي جثة ولدها ، بعد إذ عجز عن حمايته حياً ، وبعد إذ عجز عن دفع ما قضت به ربات القدر

وينظر زيوس فيرى إلى بتروكلوس واطئاً بقدمه صدر ساربيدون ، عادة الجاهلية ، ويسمع إليه يقذفه بأشنع عبارات التهكم والاستهزاء ، غير راث لهذه الروح التي تفيض ، أو معتبر جلال الموت الذي تخشع أمامه القلوب ؛ فيثور الآلـه ، ويحنق على بتروكلوس وجند بتروكلوس ، ويأمر ولده من لا تونا . . . أبوللو المظيم ... فينطلق من فوره إلى معمعان الحرب ، ويرسل إلـهيْ النوم والموت فيحميان جثمان القتيل ، ويدفعان عنـه سباع الميرميدون التي تكاثرت حوله تريد لو تسبي سلاحه ، وتستنقذ دروعه

أما الجثة ، فيحملها الآلـهان الكريمان إلى ليسيا ؛ وثمة ، يخلطان بها حنوط الخلود ، ويلفانها في ثوب سماوي من ثياب الرحمة ، ويجمعان حولها عرائس الفنون تبكيها وتنشد لها أوجع ألحانها ، وأشجى ما تكن موسيقاها

ويبدو لبتروكلوس أن طروادة ، بعد ساربيدون ، لقمة سائغة ، وغنيمة باردة ، فيهتف بالأغريق مرة ، وبالميرميدون مرة أخرى ، أن يقاحموا نحو أسوارها ، وأن ينتهزوها فرصة تفتح عليهم فيها المدينة الخالدة

ولا ندري كيف يستيقظ الطرواديون وأحلافهم من سكرة الروع التي غشيتهم فينكشف لهم أن البطل الذي قتل ساربيدون وعشرات غيره من صناديدهم ، ليس هو أخيل المظيم ، وإن يكن يحمل خوذته ، ويقنّع في دروعه ، ويذرع الساحة بحربته . . فتهدأ أعصابهم ، ويثبت جأشهم ، ويأخذون في مناهضة الميرميدون والأغريق جميعاً

ولكن بتروكلوس يهجم غير هياب ، ويجندل من حوله الأبطال المناويد ، ويقود جنده إلى البوابة الكبرى حيث وقف هكتور ينظر إلى المعركة بعينين مشدوهتين ، ونفس مذهوب بها ، وقلب حيران متصدع . . .

ووقفت الآلهة دون البوابة تحمي طروادة الخالدة . . .

ذلك أن بتروكلوس كان كلما بلغ ثمة . . . وجده وجنده ينسحبون إلى وراء بقوة خافية لايدرون سرها ، ولايعرفون من أين تأتيهم فتخطفهم ، وتردى جحافلهم ... وهي على قاب قوسين من داخل المدينة . . . أو أدنى !

وفي الهجمة الثالثة ، سمع بتروكلوس إلى صوت إلـهي يقول :

« بتروكلوس ! ليس على يديك تفتح هذه المدينة الخالدة ! بل هي لن تفتح على أخيل المظيم الذي هو أقوى منك ، ومن عشرة من أمثالك ! عد من حيث جئت ، واحذر أن تكون آخرتك اليوم ، في هذا الميدان المضرج بدماء ضحاياك ! »

وتلفت بتروكلوس فرأى الهاتف هو إلـه الشمس ، أبوللو ، أبوللو بعينه ، رب طروادة المظيم ، واقفاً فوق برجها الباذخ يقلب قوسه في يديه الجبارتين ، مرسلاً في عساكر الميرميدون والجنود الميلانيين ، نظرات تقدح الشرر ، وتورى نيران الكبد والجبروت !

واقشعر جسم بتروكلوس ، وأيقن أن أبوللو هو الذى رفع جثمان ساربيدون من مكانه من المعمعة ، وأنه أيضاً أقبل ليلعب دوره ضد الميرميدون وضد الأغريق ، وضد بتروكلوس قبل كل شيء !!

ولـكن بتروكلوس محارب ، وقلب المحارب العظيم لا يعرف الجبن ، ولا يتلجلج لقصف المنايا في المعركة ، فكيف به يخفق فرقاً إذا رأى الآلهة نفسها تحارب في صفوف الأعداء ! .

أقبـل يا بتروكلوس وأقدم ، ولا يهولنك أبوللو ، وألف ألف أبوللو ، مادام العمر واحداً ، والساعة آتية ، ولن يفلت أحد مما قدر له !

* * *

وبهت الجمان المقتتلان حول جثمان ساربيدون حين رأوه إليه يرتفع في الهواء ، ثم يتهادى إلى جهة ليسيا ، موطنه الذى يبكى عليه ، فعلموا أن السماء تعمل !

وأحس الليسيُّون هذا الفراغ المفزع الذى خلفه ملكهم المقتول فيهم ، فذهب رئيسهم المغوار ، جلوكوز ، نائب الملك وخير وجوه ليسيا ، إلى حيث وقف هكتور ينظر إلى المعمعة قريباً من البوابة الكبرى ، فوقف تلقاءه محطم القلب ، دامع العين ، موهون القوى ، وقال : « يقف هنا بطل أبطال طروادة المظيم ، ويدع أحـلافه البواسل يجودون بأرواحهم من أجل اليوم ، ويسيلون نفوسهم على طى الرقاق البيض التى يرهفها في وجوههم أعداؤكم ! ولأى شيء !؟ لأنكم استجرتم بنا فأجرناكم وأسرعنا إليكم نفتديكم بالمهج الغالية والدماء الزكية ! هكتور ! لقد قتل ساربيدون ، فهل علمت ! هل علمت هـذه النفوس التى يعضها الأسى ، والعيون التى تقرحها الدموع ، ويعصف بها الهم !؟ فيم وقوفك هكذا ترمق الساحة وقد رأيت من بتك الميرميدون بنا ما رأيت . هل فكرت في حماية مولانا الملك ، أو على الأقل صيانة جثمانه العزيز ؟ ! لقد نهبوا دروعه وسلاحه ، فأى عار يصمنا في طويل الأحقاب والآباد ؟ يا لثأرنا ... يا لثأرنا ... ! »

ولم ينبس هكتور !

ولـكنه شاهد الميرميدون يبيدون الـكرة بعد الـكرة على الطروادبين ، فينالون منهم ويعزقون صفوفهم ، وشاهد البطـل الأغريقى المشهور إبجيوس ، يصول بين الجيشين ويجول ، ويجندل الأبطال ويبيد لهاميم الرجال ، فأخذ هكتور حجراً كبيراً وانتهز فرصة من إبجيوس ، وقذف بالحجر فوق رأسه فشجه ، وبرز المخ ، وتدفق الدم ، وتردى البطل فوق الحدور حتى استقر في بسيط الساحة !

واستشاط بتروكلوس غضباً ! وود لو كان قريباً من هكتور فيضغط على عنقه ضغطة تذهب به إلى الجحيم ! ولكنه لم يستطع إلا أن يثأر للقتيل بقتل ما صنع هكتور ؛ فقد تناول جلموداً كبيراً ، وقذف به ستينلاس المائل ، أشجع شجعان طروادة الأحياء ، فأطاح جمجمته ، وهوى الجلمود على مفرش جواده فقتله ، بين عجب الطروادبين وشدة تحيرهم ! !

ولـكن جلوكوز — رئيس الليسيين — يرى إلى ذلك فيتـخط ، وينقض على البطل الميـلانى الـكبير باثيسليز ، فيشكه برمحه شكة تذهب به ، وتتركه يتشحط في دمه . وتستمر المعركة ...

* * *

أما أبوللو ! فيغيظه من هكتور هذا الجمود الذى استولى عليه ، وذلك الموقف الجبان الذى يحول بينه وبين الميدان ، وفي الحق ، لقد كان هكتور ينظر إلى شـياطين الميرميدون ولا يصدق أنهم مقاتلة من البشر ، بل وقر في قلبه أنهم زبانية من جحيم بلوتو سلطهم القادر على الطروادبين يسومونهم الخسف وسوء العذاب !

وتنكر أبوللو ؛ فبدا في زى محارب في عنفوان الشباب ، ثم أجرى في عروقه من دماء بني الموتى ، وغضّن قليلا من جبينه ، وسوى من ساعديه ، ونثر فوق عدته من ثرى المعمعة ، ولوّح وجهه علامح (أسيوس) العظيم ، أخى هكيوبا ، وخال هكتور ؛ وسار قُدُماً إلى حيث وقف فتى طروادة المسحور يروع الساحة الهوجاء :

« هكتور ! فيم إحجامك عن لقاء الأعداء يا بنى ؟ هلم ، هلم ! فوأرباب الأولمب لو كان لى شبابك وعنفوانك ، لصاولت هؤلاء الميرميدون الألداء ، ولأخليت منهم تلك الحومة التى ملأتك هلعاً ! أقدم يا هكتور ولا تحجم هكذا ! إلق بتروكلوس فقد تصرعه ، وإنك لصارعه ، وإنك لعاقد إكليلاً من المجد فوق رأسك لا يذبل أبد الدهر ، وحسبك أن أبوللو صاحبك وحاميك ومسدد خطاك ، ومضاعفٌ بتأييده ضرباتك ! هلم ، هلم ، وعش عزيزاً يا هكتور ، أو مت كريماً يا بنى ، بين طعن القنا وخفق البنود ! »

وانفتل أبوللو فانخرط فى صفوف المقاتلين ، وطفق يُصرِّع أبطال الهيلانيين ليضرب المثل لهكتور ، وليشحذ من همته الخابية ، وليوقظ شبابه النائم

فلما رأى هكتور جلائل هــذه الفعال التى أبداها خاله — وما هو بخاله — انكشفت عنه هذه الغمة التى غمرته ، وأمر سِبْريونيس ، سائق عربته ، أن ينطلق به إلى الحومة . فانطلق السائق المسكين نحو بتروكلوس ، حتى إذا كان على مقربة من شباة رمحه ، ترك صاحبه وجهاً لوجه معه . وكان السائق من مغاوير أبطال طروادة ، فأخذ يناوش بتروكلوس هو الآخر ، فما كان من قائد الميرميدون العظيم إلا أن قذفه بحجر هشم رأسه ، وصدع فقاره ، وطار بروحه إلى هيدز

واقشعر هكتور من هول الضربة ، وعز عليــه أن يودى سبريونيس وهو بين يدى مولاه ، فلا يجد له حامياً . ولــكن الطرواديين تكبكبوا حول القتيل ، يذودون الهيلانيين الذين كان كل همهم أن يفوزوا بعدته ، أثراً حربياً خالداً !!

واشتد صيال القوم حول جثمان السائق ، وصخبت زوبعة القتال فوقه ، واشترك هكتور وبتروكلوس مع أجنادهما ؛ فكان جماعة يشدون القتيل من قدميه ، بينما جماعة أخرى تشده من الرأس ، وهم يعفرونه فيما بين هذا وذاك بالتراب ، ويلطخونه بالدم !

ووجد أبوللو فرصته !

أبوللو الخائن ! أبوللو سيد الشمس الذى لا يستحى ! أبوللو الالــه الذى يفرق أن يلاقى بتروكلوس وجهاً لوجه ، فيأتيه من الظهر ! كأجبن الجبناء !!

يا للآلهة ! ومسكين يا بتروكلوس !!

لقد تقدم أبوللو ، مستجمعاً كل قوته فى قبضة يمينه الجبارة فأهوى على قفا بتروكلوس بضربةٍ خائنةٍ كضربات اللصوص ، حين ينسلون تحت أستار الليل ، فأطار صواب البطل ، وأوقع الخوذة الأخيلية الهائلة ، وغودر الرأس العظيم مكشوفاً فى متناول كل ظباةٍ وكل سنان !

ولم يدع هكتور فرصته تمضى ، بل سرعان ما أبصر بتروكلوس يتلفَّت برى صانعه ، حتى أرسل رمحه الرعديد الخائر ، إلى الرأس العارى ، فأقصده . . .

وسقط بتروكلوس المسكين . . . مضرجاً بدمه !!

ووقف هكتور يتشدق ، ويفاخر تلك المفاخرة الكاذبة :

« بتروكلوس ! أرأيت ؟ لقد انتهيت ! ولقد طاحت آمالك وذهبت أمانيك فوق هذه الساحة أباديد ! بتروكلوس ! أكنت تحلم بأن تُفتَح طروادة عليك ، فتسوق بيض خدورها إماء بين يديك إلى بلادك ، وتُقرَّن فى الأصفاد أبطالها البهاليل ! ؟ أيها التاعس . لقد ترديت من عربة أخيل التى لم تكن يوماً أهلاً لها ، وبعــد قليل تنوشك سباع الطير ، وتغادرك فوق ثرى طروادة صعيداً جرزاً ورفاتاً سحيقاً !!

بتروكلوس ! يا أتعس قتيل فى هذه الساحة الحمراء !

كم كنت تحدث نفسك أن لو كان هكتور ، هكتور الحلاحل ، قاتلك ، وصافح دمك ، هو الذى ينام تلك النومة الساعة بين يديك !!

وكم كنت تمنى نفسك أن لو عدت بعدة هكتور وعتاده إلى مولاك ، إلى أخيل الذى أرسلك إلى الحومة ، ولم يجازف بنفسه فيها ، وهو يعلم أن أسدها الهصور لابد قاتله ، فافتدى نفسه بك ، وضحاك فى سبيل خلاصه ، من هــذه الصرعة التى زلزلتك !

بتروكلوس !

أهكذا قد غرر بك أخيل ، فأطلقك إلى حيث تلقى حتفك وتسبح فى دمك ، وتغص بآلامك ؟ وإنه ليسبح الآن فى شهواته ويقارف لذاته ، ولا يدرى مصيرك الحزن ، ولا يعرف ما حل بك من موتة زؤام !! . . . . »

وكان بتروكلوس العظيم يجود بروحه ، ويسمع إلى هــذا الهذر ، ويبكى ! فلما انتهى هكتور تأوه القتيل آهة عميقة ، وقال :

« هكتور !

حق لك أن تفتخر الآن !

أما قبل هذه اللحظة ، فقد كنت تبحث عن قلبك الرعديد فلا تجده ، لأنه طاش من شدة ما عاينت من ضربات الميرميدون ! على أنك لو كنت رجلاً ، لآثرت أن تدفن وجهك فى الرغام ، دون أن تفتخر بنصر ليس لك فى أقله يدان !

لست أنت الذى رميت يا هكتور ، بل هو سيد الأولمب ، وولده أبوللو ، هما اللذان رميا ، وهما اللذان كتبا هـذا القضاء ، وأبرما هذا القدر !!

وإلا ، فوأرباب هيلاس ، لو صاولت عشرين كلباً مثلك ، لما أفلت منهم أحـد أبداً ؛ ولأرسلت أرواحهم الخبيثة تتردى فى نار جهنم !!

أجلى هو الذى أعجلني يا هكتور ، وأبوللو هو الذى فتك بى تلك الفتكة البكر ، أما أنت ، فلم تصنع شيئاً ، أكثر من أن رميت رمية الجبان !!

على أنى أقولها لك قولة غير كاذبة

إنك ستشرب بالكأس التى شرب بتروكلوس ، ولن تبسم لك الدنيا أكثر مما فعلت ، فانتظر ، فسيأتيك عذاب يشقيك ، وسينتفض أخيل العظيم حين ينتهى إليه نبأ مصرعى ، فيهرع إلى هذه الساحة ، والويل لك من رمحه الظامئ إلى دمك ! » .

وكانت هذه المقالة قد أجهدته ، فسكت قليلاً ، ثم أغمض عينيه إغماضة متعبة ، وفتحهما فجأة ، ونظر إلى جنوده ، وقال :

« ميرميدون !

وداعاً ... سلامى ... إلى ... أخيل !! »

***

وفاض الروح الكبير ، وسكنت الساحة الحزينة كلها ... كأنها تبكى ... !

وكأنما هزت كلمات بتروكلوس فؤاد هكتور ، وكأنما خشع بطل طروادة لجلال الموت ، فصمت طويلاً ... وقال ، مخاطباً القتيل :

« بتروكلوس !

من يدرى إذا كان أخيل هو الذى يقتلنى ، أو كنت أنا الذى أقتل أخيل !

هذه آجال يا أخى ... فالسلام عليك !! »

***

ولم يتورع هكتور أن ينزع حربته من رأس البطل ، ولم يتورع كذلك أن يأمر فينزع رجاله عدة أخيل ...

تذكاراً حربياً !

وعتاداً مؤقتاً !

(لها بقية) دريني خشبة

البريد الأدبي

مؤتمر الشباب الأخلاقي — نداء لسعادة رئيسه

إلى شباب مصر :

أبنائي الأعزاء ....

كان بودي أن أجمعكم في صعيد واحد لأقص عليكم هذا النبأ السار الذي تلقيته بالغبطة والسرور من شباب رابطة الشباب المصري ... وعهدي بكم سباقين إلى طريق الخير ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وها نحن أولاء نتقدم اليكم بفكرة هي أساس لهذا المعروف الذي جبلتم عليه وتسمون اليه .. .

ما أطيب أن تدعوكم هذه الجماعة الفتية لوضع دستور للشباب يتمخض من بين جموعهم ، فيدعوهم إلى توحيد الصفوف توحيداً يبشر بالنجاح ، وينظم حياتهم الخاصة والعامة تنظيما يهيئ منهم جيلاً صالحاً نحن في أشد الحاجة اليه — ذلك لأن هذا النقص الذي نراه في بعض البيئات منا هو نتيجة لعدم تركيز حياتنا على أسس يجب أن تتوافر فينا جميعاً في هذا العصر وفي جميع العصور ، فتجعل منا رجالاً يشرفون أنفسهم ويشرفون بلادهم ؟ فاذا ما فهم الشباب حقيقة المقصد ونبل الغاية ، فقد قدر لنا أن نحقق رسالتنا على يديه ، ذلك لأنه الروح الدافقة ، والقلب النابض في الأمة

أبنائي : من منكم لا يريد الهداية لهذا الخلق الحائر .... المغمور فيما لا يرضى نفوسكم الطاهرة ، فضموا الصفوف وتعالوا إلى كلمة سواء لتسمعوا آراء كبار مفكريكم في مؤتمر الشباب الأخلاقي ، ثم نتناقش معاً في جو من الحرية ونزاهة القصد حتى يستقر عزمنا على تحقيق ما قمنا من أجله من وضع دستور تهذيبي يهيئ للشباب سبل الرشاد ؛ هدانا الله سواء السبيل ؟

رئيس مؤتمر الشباب الأخلاقي

محمد علي علوبه

الأستاذ ساطع الحصري

قدم القاهرة منذ يومين الأستاذ الجليل ساطع بك الحصري الوكيل الفني لوزارة المعارف العراقية ومدير دار الآثار ببغداد ، ليتصل برجال العلم وقادة الفكر في مصر ، ويقف على نظم التربية وطرق التعليم ومناهج الدراسة في المعارف ، فيقتبس من الأساليب ويختار من الكتب ما يلائم الحال في مدارس العراق ، توثيقاً لرابطة الفكر وتحقيقاً لوحدة الثقافة بين البلدين الأخوين

والأستاذ ساطع أحد الأعلام المعدودين في التربية ؛ وقد كان عميد هذا الفن في تركية قبل الثورة العربية ؛ فلما قامت الدولة الفيصلية في دمشق كان وزيراً للمعارف فيها ، حتى إذا ما انتقلت إلى بغداد انتقل معها وتولى إدارة المعارف هناك ، فوضع أساس التعليم للحكومة الجديدة على أساس الوحدة القومية وأحدث الطرق الفنية بالرغم من ندرة المعلمين ومشاكل الطائفية وعراقيل الانتداب . وأفضل مزايا الرجل أنه صحيح المبدأ ، منطقي الفكر ، صليب الرأي ، حي الضمير ، يتقن العمل الذي يعمله ، ويعلأ المنصب الذي يشغله

له مؤلفات قيمة في التربية ، ولكن أنفع آثاره وأخلدها مجلة التربية والتعليم التي كان يصدرها في بغداد ، فان مجموعاتها سفر جليل حافل في التربية والأخلاق والأدب ؛ وهو ولا شك ركن أساسي قوي من أركان النهضة العلمية في العراق ؛ فأهلاً به وسهلاً

حول قبر الصفدي

إلى الأخ (الصفدي) الفاضل ، صاحب الكلمة الطيبة المنشورة في بريد الرسالة الحادية والعشرين بعد المائة . . .

المعروف ياسيدي أن الصلاح الصفدي جاء إلى دمشق في آخر حياته ، وتولى فيها وكالة بيت المال وكتابة الدست وأقام عليهما إلى أن توفي سنة ٧٦٤ . فلما قرأت كلمتك شككت في ذلك ورجعت إلى ما في خزانتي من مراجع ، فاذا الذي في طبقات

السبكي (٦ : ٩٤) والسبكي معاصره وصديقه ، والشذرات (٦ : ٢٠١) ، وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان (٣ : ١٦١) والأعلام لخير الدين (١ : ٢٩٦) أن وفاته في دمشق ، وزاد في الشذرات أنه دفن بالصوفية ، ومقبرة الصوفية قد درست وقام عليها بناء الجامعة السورية والمستشفى الوطني ، ولم يبق منها إلا قبر شيخ الاسلام ابن تيمية قائماً وسط المستشفى ، وهي في أثره موضع في دمشق معروف بمقبرة البرامكة

فكيف يكون القبر الذي وصفت في صفد قبره ؟ وعلام استند الأستاذ المحقق أحمد زكي باشا رحمه الله في تأييد ذلك ؟ هل وجد نصاً يطمئن اليه الباحث ، ويثق به المنقب ، أم اكتفى بالسماع ، والشائع على ألسنة الناس ؟

هذا وقد وقع لي مرة أني كنت ماراً في الزقاق الذي ينتهي إلى سوق الحميدية ، وفيه دور المَرْدميين ، والذي يسمى زقاق الفخر الرازي ، فلمحت في خربة قذرة قد اتخذها الناس لمثل ما تتخذ له المراحيض ... لمحت حجراً أبيض مصقولاً عليه كتابة يبدو طرفه ، وسائره غائص في الطين والأوساخ والتراب ، فمالجته ودعوت من أعانني على استخراجه ، فاذا هو الحجر الذي كان على قبر الامام المصنف العظيم ، علامة الملدين ، فخر الدين الرازي ، وإذا عليه اسمه ، فحملت الحجر إلى المدرسة التجارية ، وذهبت منها ثائراً ، أقيم الأرض وأقعدها ... ثم بدا لي فرجعت إلى ترجمته ، فاذا من المتفق عليه أنه توفي رحمه الله ببلدة هراة يوم الاثنين في عيد الفطر سنة ٦٠٦ ودفن فيها !

ولعل هذه من تلك ؟ ولعل هذه المزبلة التي في صفد قبر رجل آخر غير الصلاح صاحب الوافي بالوفيات وتلك المصنفات . وإذن فلله الحمد ، وإن كنا من قبل لفي خطأ مبين

والسلام عليك أيها الأخ ورحمة الله وبركاته ؟ علي الطنطاوي

الشيخ عبد العزيز الميمني

قدم القاهرة الأستاذ العلامة الشيخ عبد العزيز الميمني الراجكوتي أستاذ اللغة العربية في جامعة عليكره في الهند ، وأحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ، وهو صاحب المصنفات والآثار المتعة التي تمتاز بالتحقيق المنقطع النظير ، منها :

(١) أبو العلاء وما إليه ، وفي آخره قالت شعره ورسالة الملائكة . (٢) تنكيتات وتعقبات على خزانة الأدب البغدادي . (٣) اقليد الخزانة ، وهو فهرس لما تضمنته خزانة الأدب من الكتب المنسوبة . (٤) تحقيق (ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد للمبرد) . (٥) تحقيق (أبواب مختارة للأصبهاني في مجازات العرب) . (٦) شرح (ما تلحن فيه العوام للكسائي ومقالة كلا لابن فارس) . (٧) التتف من شعر ابن رشيق وابن شرف . (٨) ابن رشيق حياته والبيئة التي نشأ فيها . (٩) زيادات ديوان شعر المتنبي . (١٠) تحقيق كتاب المداخل لأبي عمر الزاهد المطرز غلام ثعلب . (١١) تحقيق كتاب جاويزان خرد (أي العقل السرمدي) ، كان ترجم أيام المأمون من الفارسية القديمة إلى العربية ، وهو أقدم كتاب في العالم على رأي الفرس إذ ينسبونه إلى حفيد آدم . (١٢) وقد عني في هذه السبع السنوات الأخيرة بكتاب اللآلي في شرح أمالي القالي لأبي عبيد البكري فصححه على نسختين بألمانيا ومكة ، ونقحه بما لا مزيد عليه من العناية ، وخرج كل ما فيه ، وشاطر المؤلف في جميع المباحث ، وذيله بإتمام الكلام على ذيل الأمالي بطريقة البكري نفسه . والأستاذ الميمني بعمله هذا قد أتى بفلقة من الفلق في هذه الأزمنة المتأخرة ، ودل على اطلاع واسع في آداب اللغة العربية في زواياها المترامية الأطراف ، وقد سد الفراغات وما يبض له البكري في كثير من الأمكنة التي كانت تحتاج لمزيد بحث وتدقيق

إلى غير ذلك من مباحث مفيدة ومقالات مستفيضة نشرت في مجلتي المجمع العلمي والزهراء . والله نسأل أن يمتع الأدب العربي بطول بقائه

محمد سُفير

سرقة أدبية

نبهنا الأستاذ علي الطنطاوي والأديب محمد يوسف توره الى أن القصيدة التي نشرت في عدد الرسالة الماضي تحت عنوان : (حماقي) وفوق إمضاء (عيسى وهب الله الشمبيري) هي للشاعر محمود حسن اسماعيل صاحب (أغاني الكوخ) ترجها ونشرها في مجلة الأسبوع عدد ٤ أبريل سنة ١٩٣٤ ! وأعجب ما في الأمر أن هذا السارق أرسل إلينا قطعة أخرى ، ونرجو أن نشير إلى أن اسمه (عيسى وهب الله عبد المسيح) لا عيسى وهب الله الشمبيري كما نشر ، فكأنه ساعد الحق على فضيحته ! !

السياسة والتاريخ

أضحى تعليم التاريخ فى عصرنا من أكبر العوامل فى تكوين العقلية والثقافات القومية . وقد لعبت الثقافة التاريخية أكبر دور فى تكوين الجيل الألمانى الذى قام بالحرب الكبرى ، وكانت من أهم العوامل المعنوية فى إذكاء الفكرة الجرمانية . وحينما كانت السياسة تسيطر على سير الثقافة القومية نرى التاريخ يلعب دوراً كبيراً فى تكوين النشء ، ويصور بالألوان التى تلائم غايات الدعاية السياسية ؛ ففى إيطاليا الفاشستية وفى روسيا البلشفية ، وفى ألمانيا الهتلرية ، يدرس التاريخ بالأساليب السياسية ، ويستعمل أداة قوية لصوغ عقول الشباب وتوجيهها نحو الآراء والنقط الحساسة التى تستطيع السياسة متى حان الوقت أن تضرب على أوتارها . ولم ينس الدعاة الهتلريون فى ألمانيا هذه الحقيقة بل عملوا على استغلالها ، وانشأت الحكومة الهتلرية معهداً جديداً للتاريخ أسمته « المعهد القوى لتاريخ ألمانيا الجديدة » وفى أنباء برلين الأخيرة أن هذا المعهد قد افتتح بالفعل فى حفلة رسمية عقدت بهو جامعة فردريش ولهلم ، وشهدها جمهور كبير من زعماء الحزب النازى ومندوبى الجامعات الألمانية . وتحدث مدير المعهد الجديد الدكتور والتر فرانك عن « الوجهة الاشتراكية الوطنية لفهم التاريخ » وأفاض فى استعراض المناهج السلبية القديمة لدراسة التاريخ وحمل عليها بشدة قائلاً : «ان صراعنا العلمى ممتزج بصراع أمتنا القوى ، ولسنا نستطيع أن نكون فى حياتنا وفى عملنا أكثر من تعبير عقلى عن التطور العظيم والعصر العظيم اللذين اضطلع بهما أدولف هتلر »

وشرح الدكتور والتر مهمة المعهد الجديد فى ميدان الدراسة التاريخية ولخصها فى أربع نقط هى :

أولاً — غزو الأفكار الغربية لألمانيا منذ سنة ١٧٨٩ (أعنى منذ الثورة الفرنسية) إلى سنة ١٨٤٨

ثانياً — الحركة القومية الدينية فى القرن التاسع عشر

ثالثاً — ألمانيا وتطور الفلسفة فى القرن التاسع عشر

رابعاً — المسألة الألمانية اليهودية منذ الثورة الفرنسية إلى الثورة الألمانية الوطنية الاشتراكية

وظاهر من هذا الشرح أن مهمة المعهد الجديد هى توجيه الدراسة التاريخية بما يتفق مع النظريات النازية فى شرح التطورات القومية . فالأفكار الغربية التى غزت ألمانيا ، كما غزت العالم كله ، منذ الثورة الفرنسية هى أفكار خطرة منحلة لأنها تذهب إلى أبعد الحدود فى تصوير الفردية والحقوق والحريات العامة ، بينما تذهب المبادئ الهتلرية فى الحكم وفى تصوير حقوق الفرد إلى أبعد حدود الطغيان وانكار الفردية ؛ والمبادئ النازية تصور بأنها أمثل طرق الحكم وتكوين الفرد . وأما فيما يختص بالتطور الدينى والتطور الفلسفى ، والمسألة اليهودية ، فلا ريب أنها ستصور جميعاً بصور مغرقة تبرر سياسة النازى وتؤيدها ، وتبرر بالأخص نظريات الجنس والتفوق العقلى الجرمانى وغيرها

وسيكون المعهد الجديد مصدر الوحى والالهام لدراسة التاريخ وكتابته فى جميع المعاهد والمدارس الألمانية

كتاب جديد عن لورد بيرون

كانت حياة اللورد بيرون الشاعر الانكليزى الأشهر موضع التأمل والدرس لأكثر من كاتب ومؤرخ ، فصدرت عنها بالانكليزية وباللغات الأخرى كتب لا حصر لها ، ولكن حياة لورد بيرون ما تزال فى عصرنا ، أعنى لأكثر من مائة عام على وفاته مادة شائقة للدرس ؛ وقد صدر أخيراً عن بيرون كتاب جديد عنوانه « بيرون : أعوام الشهرة » Byron : the Years of Fame بقلم الكاتب الانكليزى بيتر كنيل ؛ وهو كتاب ضخم يفيض بالعرض الشائق ويتناول حقبة صغيرة من حياة بيرون هى ما بين سنتى ١٨١٢ و ١٨١٦ ، وهى الفترة التى استقبل بيرون فيها مجده الباذخ وغدا عزيز المجتمع المدلل

وقد ولد بيرون سنة ١٧٨٨ ، من أسرة تشرفت بالنبل ، ولكن عرف أفرادها بسوء الطباع وانحلال الخلق ، ولم يكن بيرون يشذ عن هذه القاعدة ؛ ولكن بيرون كان شاعر الطبيعة العبقرى ؛ بيد أن هذه العبقرية التى تفتحت بسرعة مدهشة ، وغمرت كل ما حولها ، لم تدم سوى فترة قصيرة هى التى اتخذها مستر كنيل موضوعاً لدراسته ؛ ففى هذه الأعوام الأربعة أو الخمسة يبدو بيرون فى ذروة قوته وخلاله ، وقد استعرض المؤلف نفسية الشاعر وخواصه بافاضة وبراعة ، ونوه بنوع خاص بذلك المزيج المؤلم الذى يجثم فى نفسية بيرون وفى صفاته ، والذى يجعل حياته الباهرة قطعة من العذاب المستمر ؛ وذلك التباين المدهش الذى يجمع فى صعيد واحد بين الخليع الصاخب والحيى النقى ، وبين المدنف الشره والقنوع الزاهد



(١) المعجم الفلكي — للدكتور أمين المعلوف باشا

(٢) خصائص اللغة العربية — للأستاذ حبيب غزالة بك

(٣) الزراعة العملية الحديثة — للأستاذ الأمير مصطفى الشهابي

(٤) في أصول الأدب —
(٥) تاريخ الأدب العربي — } للأستاذ أحمد حسن الزيات

للأستاذ محمد بك كرد علي

— ١ —

بعد بحث الأستاذ أمين المعلوف في الحيوان سنين طويلة ألف كتاب معجم الحيوان ، فوقع من نفوس العلماء أجلّ موقع ، وهاهو الآن ينشر المعجم الفلكي وهو يشمل الثوابت والكواكب السيارة والصور النجومية وبعض المصطلحات الفلكية . وقد جاءت فيه أسماء كثيرة أخذها الافرنج عن العرب للدلالة على النجوم كانت على الدهر شاهدة بفضلهم في هذا العلم . وقد حقق الأستاذ المعلوف ألفاظاً لم يسبقه إليها أحد ، وعلق شروحاً وحواشي مهمة وهو في ١٤٠ صفحة طبع في دار الكتب المصرية

— ٢ —

يكتب الأستاذ حبيب غزالة بين حين وآخر أبحاثاً صغيرة مفيدة ، ومنها ما نشره في جزيرة رودس وتاريخها ، ونشر اليوم رسالة في خصائص اللغة العربية قال فيها ان مما امتازت به اللغة العربية من الخصائص المترادفات والتفصيل والتقسيم والأسماء المشتركة والتضاد والاشتقاق والقلب والنحت والتجوز والتعميم والتخصيص والاستعارة والمقصور والممدود والمثنى ومزدوج الكلام والاتباع والتكرار والزيادة والتأكيد والتصغير والكناية والكنية والتفاؤل والتمويه والأمثال والجزاء أو المشاكلة والتزويج والتعويض والادغام والتخفيف والأضمار وجمع الجمع والتناسب بين المعنى والاسم والبديع والاعتراض والاعراب والتصريف والحروف وخصائص الحروف . وأورد لكل ذلك أمثلة . وقد شفع هذا البحث بدرس في اللغات العربية العامية

— ٣ —

عرف الأمير مصطفى الشهابي في الأندية العلمية بأبحاثه الزراعية والاقتصادية واللغوية . وقد نشر إلى الآن عدة كتب في الزراعة ومنها كتاب « الزراعة العملية الحديثة » في خمسمائة صفحة ، طبعه طبعة ثانية منقحاً مزيداً مزيناً بالصور بعبارة سلسة قل أن كتب في الزراعة مثلها . وللمؤلف معجم مفيد في الألفاظ الزراعية ، وضع لكل لفظ من الألفاظ بالافرنجية ما يقابلها بالعربية ، ومنها ما كان من وضعه خاصة وهو بضع مئات ؛ فحبذا لو صحت عزيمته على طبعه خدمة للعلم

— ٤ —

أحسن الأستاذ أحمد حسن الزيات بنشر محاضراته ومقالات

ومنذ سنة ١٨١٦ يأخذ نجم بيرون في الأفول ، ولكن شهرته تصمد ردحاً آخر ، وتنتهي حياته المضطربة الصاخبة بأن يرغم على مغادرة انكلترا إلى إيطاليا ثم إلى اليونان ؛ وقد كان اسم اليونان الطامحة الى حريتها يجذب يومئذ كثيراً من عشاق الحرية ، وكان بيرون في طليعة أولئك الذين جذبهم وسحرهم ماضي تلك الأرض القديمة ؛ فغادر ايطاليا الى اليونان في أوائل سنة ١٨٢٤ حينما علم بأن اللجنة الثائرة انتخبته عضواً فيها ؛ وذهب الى اليونان ليعمل في سبيلها بقلمه وماله وشخصه ؛ ولكن جراثيم الداء الذي قوض حياة الشاعر كانت تعمل عملها ، فلم تمض أشهر قلائل حتى توفي ، واختتمت تلك الحياة الباهرة الصاخبة بسرعة ، ولكن اسم الشاعر ما زال بعد مائة واثني عشر عاماً من وفاته يفيض حوله أسمى معاني العبقرية والعظمة والخلود

فى كتاب خاص ؛ ومن أحق من بلاغة ابن الزيات بالتخليد ؟ وقد درس فى هذا الجزء عدة موضوعات ومن أهمها الأدب وحظ العرب من تاريخه والعوامل المؤثرة فيه ، وتاريخ ألف ليلة وليلة ، وبحثه فى الروايات المسرحية كالمأساة والملهاة والدرامة والغنائية (الأوبرا) ؛ ولا شك أن الكلام على ألف ليلة وليلة والروايات المسرحية من الأبحاث الممتعة التى وفق الأستاذ إلى وضعها ولم يسبقه أحد إلى تجليتها وتجويدها . وحبذا لو جمع أيضاً فى كتاب بعض ما خطته أنامله على صفحات الرسالة من المقالات الممتعة ، فان الكتاب تتناقله الأيدى فى كل زمان ومكان على صورة لم يكتب للمجلات حتى الآن مثلها

— ٥ —

قلَّ فى الكتب حتى المدرسية ماطبع بضع طبعات . وصدور الطبعة السادسة من تاريخ الأدب العربى دليل بيّن على احتياج الطبقات المتأدبة اليه ، وقد زاده المؤلف امتاعا فنقحه وذيله بمعجم فسر ما غمض من الألفاظ والتراكيب ، حتى لا يحتاج طالب هذا الفن إلى الرجوع إلى كتاب آخر . وحبذا لو صحت عزمة المؤلف الكبير على البحث فى سنى ولادات من ترجم لهم من الأدباء والعلماء ، فللولادات كالوفيات دخل كبير فى تصوير المترجمين ؛ مثال ذلك عبد الله بن المقفع ، فقد ذكر أنه قتل فى السادسة والثلاثين ، وعلى هذا جرى كل من ترجموا له ومنهم كاتب هذه الكلمة فى « رسائل البلغاء » (طبعت طبعة ثانية فى القاهرة سنة ١٩١٣م — ١٣٢٤ﻫ) ، وتبين بعد ذلك أن ابن المقفع عاش أكثر من ذلك ، فقد ذكر الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتاب الذى طبعه فى ڤينا السيد موجيك من علماء المشرقيات سنة ١٣٤٥ — ١٩٢٦ أن ابن المقفع كان يكتب لداوين عمر بن هبيرة على كرمان ؛ وعمر بن هبيرة عزله هشام بن عبد الملك عن العراق والشرق سنة خمس ومائة ، وقال إنه كتب للمسيّح بن الحوّارى فى نيسابور فى ولاية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز قبيل تقلص الدولة الأموية ، وبهذا يصدق التخمين بأن عبد الله بن المقفع ولد فى عشر التسعين ظناً ، ولا يعقل أن يكتب لأحد قبل أن يتم له نحو خمس وعشرين سنة على الأقل ، وإذا حسبنا ذلك كان ابن المقفع يوم قتل ابن ستين أو نحوها ؛ وهذا هو المعقول لأنه كتب أكثر من عشرة كتب ، والعمر الذى قال به من قال لا يتسع لكل هذا

محمد كرد على

مؤتمر الشباب الأخلاقى

بمناسبة المؤتمر الأخلاقى يرحب المركز العام لرابطة الشباب المصرى ١٣ شارع المناخ بمصر بكل اقتراح يصل اليه بصدده ، وقد انتدب المركز العام حضرة مراقب المؤتمر الأديب أحمد ابراهيم خطاب لمقابلة من يريد الاستزادة فى المعلومات عن هذا المؤتمر يومياً من الساعة ٤ إلى ٦ مساء ....

وقد استقر الرأى نهائياً على أن يعقد هذا المؤتمر يومى الخميس والجمعة ٢ و٣ رمضان سنة ١٣٥٤ الموافقين ٢٨ و ٢٩ نوفبر سنة ١٩٣٥ الساعة السابعة مساء بقاعة محاضرات جمعية الشبان المسلمين بشارع الملكة نازلى بالقاهرة تحت رئاسة سعادة محمد على علوبه باشا .

سكرتير المؤتمر
ابراهيم الطوخى